فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

سنة ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: إن للإسلام صُوًى و«منارًا» كمنار الطريق

٣٠ شوال سنة ١٣٤٥هـ ١١ برج الثور سنة ١٣٠٦هـ ش ٢ مايو سنة ١٩٢٧

تفسير القرآن الحكيم

(١٩٤) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٥) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ
بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٦) إِنَّ
وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٧) وَالَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٨) وَإِنْ
تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ

هذه الآيات تتمة لما قبلها من آيات التوحيد مقررة ومؤكدة لمضمونها، لان توحيد العبادة ونفي الشرك فيها هو أس الاسلام، ولا يتقرر في الاذهان، ويثبت في الجنان، ويكمل بالوجدان، إلا بتكرار الآيات فيه نفياً وإثباتاً لمضمون كلمة (لا إله إلا الله)

﴿ ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ الدعاء مخ العبادة وركنها الاعظم فلا يصح توحيد أحد لله إلا بدعائه وحده وعدم دعاء أحد معه كما قال (فلا تدعوا مع الله أحداً) والمفسرون يقولون ان الدعاء في مثل هذه الآيات معناه العبادة من باب تسمية الكل باسم الجزء، فصاروا يفسرون « تدعون » بتعبدون فضل بعض العوام من القارئين وغيرهم في هذا التعبير وظنوا أن المرء لا يكون عابداً لغير الله تعالى إلا إذا كان يصلي له الصلاة المعروفة ويصوم لأجله ، وانه لا ينافي توحيد الله تعالى أن يدعى غيره معه أو يدعى من دونه بقصد التوسل اليه والاستشفاع لديه ، إذا كان لا يصلي ولا يصوم له . وقال بعضهم : ان الدعاء هنا بمعنى التسمية فيكون الانكار [illegible] وغيرهم من معبوداتهم آلهة . وكل من هذا وذاك [illegible] التي يتعلق بها من أشرك بالله جاهلا بمعنى الشرك ممن يدعون الموتى من الصالحين لدفع الضر عنهم أو جلب الخير لهم ، من غير طريق الاسباب التي هي من تناول كسبهم وسعيهم ، ولكنهم لا يسمونهم آلهة. وهذا هو الشرك الاكبر الذي نعي على المشركين من قبلهم لا مجرد التسمية التي لا تكون بدونه صحيحة

والحق الذي لا معدل عنه أن الدعاء هنا هو النداء لدفع الضر أو جلب النفع الموجه إلى من يعتقد الداعي أن له سلطانا يمكنه به أن يجيبه إلى ما طلبه بذاته أو بحمله للرب الخالق على ذلك بحيث يجيب دعاء الداعي لأجله

يقول تعالى ان الذين تدعونهم من دون الله هم عباد لله أمثالكم في كونهم مخلوقين لله تعالى خاضعين لسننه في خلقه ، وإذا كانوا أمثالكم امتنع عقلا أن تطلبوا منهم ما لا تستطيعون نيله بأنفسكم ولا بمساعدة أمثالكم لكم فيما يتوقف على التعاون في اتخاذ الاسباب له ، وانما يدعى لما وراء الاسباب المشتركة بين الخلق الرب الخالق

المسخر للاسباب الذي تخضع لارادته الاسباب وهو لا يخضع لها ، ولا لارادة أحد يحمله على ما لا يشاؤه منها

وهذه المماثلة انما تظهر فيمن يدعى من دون الله تعالى من الملائكة أو الانبياء أو الصلحاء ، دون ما اتخذ لهم تذكيرا بهم من التماثيل أو القبور أو الاصنام ، وقد صار بعض هذه المذكرات يقصد لذاته ، جهلا بما كانت اتخذت لاجله ، وفي هذه الحالة تدخل في المماثلة بطريقة تنزيلها منزلة ما وضعت لاجله ، كأنه يقول ان قصارى أمرها أن تكون من الاحياء العقلاء أمثالكم ، فكيف ترفعونها عن هذه المثلية إلى مقام الربوبية ؟

﴿ فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين ﴾ أي إن كنتم صادقين في زعمكم أنهم يقدرون على ما لا تقدرون عليه بقواكم البشرية من نفع أو ضر بدونهم فادعوهم فليستجيبوا لكم بأنفسهم ، أو ليحملوا الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ما تطلبون منه ان كنتم صادقين في قولكم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقولكم (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) أم تبين لهم أنهم أحط رتبة منهم لا أمثالا لهم فقال

﴿ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ﴾ هذا تقريع موجه الى الوجدان ، في إثر احتجاج وجه قبله الى الجنان ، والاستفهام فيه للانكار ، وهو خاص بالاصنام والاوثان ، ومعناه أنهم لفقدهم لجوارح الكسب التي يناط بها في عالم الاسباب النفع والضر ، قد هبطوا عن درجة مماثلتكم من كل وجه ، فليس لهم أرجل يسعون بها الى دفع ضر أو جلب نفع ، وليس لهم أيد يبطشون بها فيما ترجون منهم من خير أو تخافون من شر ، وليس لهم أعين يبصرون بها حالكم ، وليس لهم آذان يسمعون بها أقوالكم ، ويعرفون بها مطالبكم ، فأنتم تفضلونهم في الصفات والقوى التي أودعها الله في الخلق ، فلماذا ترفعونهم عن مماثلتكم ، وهم بدليل المشاهدة والاختبار دونكم ؟ وها أنتم أولاء تستكبرون عن قبول الهدى والرشاد من الرسول وتعللون ذلك بأنه بشر مثلكم ، فيقول بعضكم

لبعض (ماهذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون) أفتأبون قبول الحق والخير من مثلكم، وقد فضله الله بالعلم والهدى عليكم ، وهو لا يستذلكم بادعاء انه ربكم أو إلهكم ، ثم ترفعون مادونه ودونكم إلى مقام الالوهية، مع انحطاطه وتسفله عن هذه المثلية ؟

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المرزوئين بعقولهم ، المحتقرين انعم الله تعالى عليهم ، نادوا شركاءكم الذين اتخذتموهم أولياء وزعمتم أنهم فيكم شفعاء، ثم تعاونوا على كيدي جميعاً، واجمعوا مكركم الخفي لايقاع الضرّ بي سريعاً ، فلا تنظرون أي لا تؤخروني ساعة من نهار ، بعد إحكام المكر الكبّار ، وحكمة مطالبتهم بهذا ان العقائد والتقاليد الموروثة تتغلغل في أعماق الوجدان ، حتى يتضاءل دونها كل برهان ، ويظل صاحبها مع ظهور الدليل على بطلانها يتوهم انها تضر وتنفع وتقرب من الله وتشفع ، فطالبهم بأمر عملي يستل هذا الوهم من أعماق قلوبهم ، ويعلمون الشعور به من صدورهم ، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء نداء استغاثة ، وأن يستنجدوا لابطال دعوة الداعي الى الكفر بها ، واثباته العجز لها ، ويبذل الجهد فيما ينسبون اليها من التأثير الباطن ، والتدبير الكامن ، الذي هو عندهم أمر غيبي ، يدخل في معنى الكيد الخفي . فان كان لها شيء ما من السلطان الغيبي في أنفسها أو عند الله تعالى فهذا وقت ظهوره ، فان لم يظهر لابطال عبادتها وتعظيمها ، ولنصر عابديها ومعظمي شأنها ، فمتى يظهر وينتفعون به ؟ وهم منكرون للبعث ، وكل مايرجونه أو يخافونه منها فهو خاص بما يكون في هذه الارض ؟

﴿ ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ هذا تعليل لجزمه ﷺ بما ذكر من عجز هذه المعبودات وتحقير أمرها وأمر عابديها على ما كان من ضعفه بمكة عند نزول هذه السورة . يقول ان ناصري ومتولي أمري هو الله الذي نزل عليّ هذا الكتاب الناطق بوحدانيته في ربوبيته ، وبما يجب من عبادته ودعائه في المهمات والملمات وحده ، وبأن عبادة غيره باطلة ، وان دعاء هذه الاوثان هزؤ

باطل ، وسخف لا يرضاه لنفسه إلا جاهل سافل ، وهو يتولى نصر الصالحين من عباده ، وهم الذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة السالمة من الخرافات والاوهام ، والاعمال التي تصلح بها الافراد وشؤون الجماعات ، فينصرهم على الخرافيين الفاسدي العقائد والمفسدين في الاعمال (فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض ، كذلك يضرب الله الامثال)

﴿ والذين تدعون من دون الله لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ أي وأما الذين تدعونهم لنصركم وغير النصر من منافعكم ودفع الضر عنكم ، فهم عاجزون لا يستطيعون أن ينصروكم ، ولا أن ينصروا أنفسهم على من يحقر أمرهم ، أو يسلبهم شيئا ما وضع من الطيب أو الحلي عليهم ، وقد كسر ابراهيم ﷺ الاصنام فجعلهم جذاذاً فما استطاعوا أن يدفعوه عن أنفسهم ، ولا أن ينتقموا منه لها . وروي عن معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل (رض) وكانا شابين من الانصار قبل أن يقدم النبي ﷺ المدينة انهما كانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويجعلانها حطبا للارامل ليعتبر قومهما بذلك ، وكان لعمرو بن الجموح وكان سيد قومه صنم يعبده فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة فيجيء فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفا ويقول له انتصر حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه بحبل في بئر فلما رآه كذلك علم بطلان عبادته وأسلم وفيه يقول

تالله لو كنت إلها مستدن لم تك والكلب جميعا في قرن

وبعد أن نفى قدرتهم على النصر ، قفى عليه بنفي قدرتهم على الارشاد اليه فقال

﴿ وان تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ﴾ أي وان تدعوهم الى أن يهدوكم إلى ما تنتصرون به من أسباب خفية أو جلية لا يسمعوا دعاءكم مطلقا ، فكيف يستجيبون لكم ؟ على انهم لو سمعوا لما استجابوا لعجزهم عن الفعل ، كفقدهم السمع ،

﴿ وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ﴾ أي وهم فاقدون لحاسة البصر كفقدهم لحاسة السمع ، وتراهم أيها المخاطب ينظرون اليك بما وضع لهم من الاعين

الصناعية، والحدق الزجاجية أو الجوهرية ، وجعلها موجهة الى الداخل عليها كأنها تنظر اليه ، وهم لا يبصرون بها لان الابصار لا يحصل بالصناعة ، بل هو من خواص الحياة التي استأثر الله سبحانه بها وإذا كانوا لا يسمعون دعاء ولا نداء من عابدهم ولا من غيره ، ولا يبصرون حاله وحال خصمه ، فأنى يرجى منهم نصره وشد أزره ؟

وفي الآية وجه آخر ذهب اليه بعضهم وهو أن الخطاب فيها للمؤمنين والرسول في مقدمتهم بناء على ان الكلام في الاصنام قد تم فيما قبلها وعاد الكلام في عابديها ، أي وان تدعوا أيها المؤمنون هؤلاء الاغبياء من المشركين ، الذين لم يعقلوا هذه الحجج والبراهين ، الى هدى الله وهو التوحيد والاسلام لا يسمعوا دعوتكم سماع فهم واعتبار ، وتراهم أيها الرسول ينظرون اليك وهم لا يبصرون ما أوتيت من سمت الجلال والوقار ، الذي يميز به صاحب البصيرة بين أولي الجد والعزم ، والصدق في القول والفعل ، وبين أهل العبث والهزل . ولقد كان بعض ذوي الفطرة السليمة ينظر الى النبي ﷺ فيعرف من شمائله وسيما في وجهه ، أنه نبي صادق ، غير خادع ولا مماذق ، فيقول والله ما هذا الوجه وجه كاذب

ومازال من المعهود بين الناس أن اصحاب البصيرة والفضيلة من الناس يعرف بعضهم بعضاً بذلك من أول العهد بالتلاقي بما يتوسمون من ملامح الوجه ومعارفه ثم من موضوع الحديث وتأثيره في نفس المتكلم والسامع ثم يكمل ذلك بالمعاشرة . كما يعرفون حال الاشرار والمنافقين بذلك (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول) بهذه البصيرة النيرة عرفت السيدة خديجة فضل عقائل قريش فضائل محمد بن عبد الله قبل بعثه ، فاستمالته وخطبته لنفسها على غناها وفقره ، بعد أن رفضت أناساً من كبراء قريش خطبوها بعد موت زوجها الاول ، ثم كانت أول من جزم برسالته عندما حدثها بأول ما رآه من بدء الوحي وخاف على نفسه منه ، وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول رجل دعاه الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى الاسلام بحسن فراسته فيه فلم يتوقف ولم يتمكث ولم يتريث أن اجاب الدعوة منشرح الصدر قرير العين ، لأنه كان أجدر الناس بمعرفة حقيتها وحقيقة من دعا اليها . وامثلة هذا كثيرة في كل زمان ، وكان أظهرها في قرننا هذا تعلق الشيخ محمد عبده بالسيد جمال الدين الأفغاني

من أول ليلة رآه فيها ولزامه الى أن فارق هذه الديار، فلم يعرفه حق المعرفة غيره على كثرة المكبرين له والمعجبين به ، وقد كان الكثيرون من أهل الازهر يفرون منه ويصدون عنه ، فأين هم وأين آثارهم في العلم أو الدين ? فبأمثال هذه العبر الواقعة تفهم معنى قوله تعالى (وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون) على الوجه الاخير في تفسيرها ، لا بمجرد تسمية هذا التعبير استعارة شبه فيها كذا بكذا. ثم اقرأ في معناه قوله تعالى (١٠ : ٤٢ ومنهم من يستمعون اليك أفانت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون * ومنهم من ينظر اليك أفانت تهدي العمي ولو كانوا لايبصرون)

---

(١٩٩) خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ

هذه الآية بيان لأصول الفضائل الأدبية وأساس التشريع ، وهي التي تلي في المرتبة أصول العقيدة المبنية على التوحيد ، الذي تقرر فيما قبلها من الآيات بابلغ التوكيد ، فقوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين) يأمر فيه بثلاثة أشياء هي أصول كلية للقواعد الشرعية والآداب النفسية والأحكام العملية

(الاصل الأول) العفو وهو يطلق في اللغة على خالص الشيء وجيده، وعلى الفضل الزائد فيه أو منه ، وعلى السهل الذي كلفة فيه ، وعلى ما يأتي بدون طلب أو بدون احفاء ومبالغة في الطلب ، وهـذه المعاني متقاربة وهي وجودية ، ومن معانيه السلبية إزالة الشيء كعفت الرياح الديار والآثار ، أو إزالة أثره كالعفو عن الذنب وهو منع ما يترتب عليه من العقاب ، فمعاني العفو الوجودية والعدمية أو الموجبة والسالبة كلها احسان ورفق ، وقد ورد عن مفسري السلف في تفسير العفو هنا أقوال كلها ترجع الى هذه المعاني، فرواية العوفي عن ابن عباس في تفسير (خذ العفو) خذ ما عفا لك من أموالهم - أي ما فضل وما أتوك به من شيء . وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها، وبذلك قال السدي وزعم أنها نسخت بآية الزكاة - وفي رواية الضحاك عنه : أنفق الفضل ، ومثلها عن سعيد بن جبير . وفي عدة روايات عن هشام ابن عروة بن الزبير عن أبيه عن عمه عبد الله ابن الزبير أن معناها خذ العفو

من أخلاق الناس ومنه وفي رواية لهشام عن عروة عن خالته عائشة أم المؤمنين مثل ذلك وبه قال مجاهد . وروي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن العفو هنا الصفح عن المشركين وكان عشر سنين فنسخ بآية السيف ، وهذا ضعيف لان العفو بهذا المعنى لا يعبر عنه بالأخذ لأنه أمر عدمي هو بالاعطاء أشبه ، ولا بالقبول لأنه لم يطلب . وأحسن الزمخشري ما شاء في تصويره معنى العفو بما تعطيه اللغة فقال: العفو ضد الجهد أي خذ ما عفا لك من افعال الناس واخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ، ولا تداقهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى ينفروا كقوله ﷺ « يسروا ولا تعسروا » قال

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضب

وقيل خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم ، وذلك قبل نزول آية الزكاة . فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعاً أو كرهاً اهـ القول وبقيت الآية محكمة في صدقة التطوع

والمختار عندنا أن العفو يشمل هذا وذاك فإنه أصل من أصول آداب هذا الدين وقواعد شرعه اليسر وتجنب الحرج وما يشق على الناس وقد تقدم تفصيل القول في ذلك في تفسير آية الوضوء من سورة المائدة [1] وقد خالف هذه القاعدة الاساسية أهل الفقه المقلوب فجعلوا العسر والحرج من أهم قواعد الدين واصول الشرع فعلا لا تسمية وقد صح في الاحاديث ان النبي ﷺ ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، وترى هؤلاء لا يخير احدهم بين أمرين إلا اختار أعسرهما ، ولا سيما العسر على الامة بأسرها ، وأما فتاوى الافراد فقد قال بعض المصنفين منهم في المسألة فيها قولان مصححان : نحن مع الدراهم قلة وكثرة !! يعني في فتوى بأحدهما

(الاصل الثاني) الامر بالعرف وهو ما تعارفه الناس من الخير وفسروه بالمعروف وفي اللسان المعروف ضد المنكر والعرف ضد النكر (قال) والعرف والعارفة والمعروف واحد ضد النكر وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتبسأ به [2] وتطمئن اليه (قال) وقد تكرر ذكر المعروف

(١) راجع ص ٢٦٩ ج ٦ تفسير (٢) بسأ به وبسىء: أنس وارتاح

في الحديث وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب اليه والاحسان الى الناس وكل ما ندب اليه ونهي عنه من المحسنات والمقبحات وهو من الصفات الغالبة أي أمر معروف بين الناس اذا رأوه لاينكرونه ، والمعروف النصفة وحسن الصحبة مع الاهل وغيرهم ، والمنكر ضد ذلك جميعه اه

والقول الجامع ان العرب تطلق المعروف على ضد المنكر وعلى ضد المجهول ، والمنكر هو المستقبح عند الناس الذي ينفرون منه لقبحه أو ضرره ويذمونه ويذمون أهله. والامر به في هذه السورة المكية التي نزلت في أصول الدين وكليات التشريع تثبت لنا ان العرف أو المعروف أحد هذه الأركان للآداب الدينية والتشريع الاسلامي وهو مبني على اعتبار عادات الامة الحسنة وما تتواطأ عليه من الامور النافعة في مصالحها حتى ان كتاب الله عز وجل قد قيد طاعة رسوله ﷺ بالمعروف في عقد مبايعته ﷺ للنساء قال عز وجل في سورة الممتحنة (٦٠ : ١٢ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم) ومن المعلوم ان عقد المبايعة أعظم العقود في الامم والدول فتقييد طاعة الرسول ﷺ فيه بالمعروف دليل على ان التزام المعروف من أعظم أركان هذا الدين وشرعه ومن المعلوم في السنة ان مبايعته ﷺ للرجال كانت مبنية على أصل مبايعته للنساء المنصوص في هذه الآية . وقال ﷺ « إنما الطاعة في المعروف » وهو في مواضع من الصحيح

وقد تقدم من هذه السورة (الاعراف) وصف النبي ﷺ في بشارة التوراة والانجيل بأنه « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » وورد ذكر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما حكاه تعالى من وصية لقمان في السورة المسماة باسمه وهي مكية كالاعراف ثم تكرر ذكر المعروف في السور المدنية وأكثرها في بيان الاحكام الشرعية العملية وذلك في عشرات من الآيات بعضها في صفة الامة الاسلامية وحكومتها وأكثرها في الاحكام الزوجية والمالية . فمن النوع الاول قوله تعالى في تعليل الاذن

المسلمين بالقتال من سورة الحج فذكر من صفات المأذون لهم به أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق لاجل توحيدالله تعالى ثم قال (٢٢: ٤١ الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور) ومنه قوله تعالى في سورة آل عمران (٣: ١٠٣ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقوله بعدها (١٠٩ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وقوله عز وجل في سورة التوبة (٩: ٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الآية ثم قوله في صفاتهم منها (التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) فهذه الآيات أصول لا مندوحة للامة عن التزامها في آدابها وتشريعها

ومن النوع الثاني ما ورد في الاحكام العملية قوله تعالى في الحقوق الزوجية من سورة البقرة (٢: ٢٢٨ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) وهذه الآية ركن من أركان الحقوق الزوجية يفضل به الاسلام جميع الشرائع والقوانين في العدل والمصلحة ولم تنل النساء مثله في أمة من الامم. ومنها قوله في أحكام الطلاق (٢٢٩ فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) وقوله بعده (٢٣١ فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) ومثلها في سورة الطلاق — وقوله بعدها في المطلقات الرجعيات (٢٣٢ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف) وقوله بعدها فيهن إذا كن مرضعات (٢٣٣ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف — الى قوله فيهن اذا أراد الزوجان الفصال من تراض منهما وتشاور — وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف) وقوله في الآية التي بعدها في معتدات الوفاة (٢٣٤ فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف) وقوله بعد آية أخرى في المطلقات (٢٣٦ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وقوله بعد أربع آيات أخرى (٢٤١ وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) وكقوله في

معاشرة الازواج من سورة النساء (٤ : ١٩ وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) وهنالك آيات اخرى في العفو عن القصاص وفي الوصية للوالدين والاقربين وفي أكل الوصي من مال اليتيم قيدت بالمعروف

فأنت ترى ان المعروف في هذه الآيات معتبر في هذه الاحكام المهمة وان المعروف فيها هو المعهود بين الناس في المعاملات والعادات ، ومن المعلوم بالضرورة أنه يختلف باختلاف الشعوب والبيوت والبلاد والاوقات فتحديده وتعيينه باجتهاد بعض الفقهاء بدون مراعاة عرف الناس مخالف لنص كتاب الله تعالى . ولشيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من فقهاء الحديث والحنابلة أقوال حكيمة في المعروف منها انه يجب على كل من الزوجين من أعمال البيت والاسرة ماجرى العرف به ، وأنه اذا كان من المعروف عن بعض البيوت انهن لايتزوجن بناتهن لمن يتزوج عليهن ويضارهن كان هذا كالشرط فلا يجوز للرجل أن يتزوج على المرأة منهن

فان قلت ان بعض العلماء قالوا ان المراد بالعرف والمعروف في الآيات هو المنصوص في الشرع كقول صاحب لباب التأويل في قوله (وامر بالعرف): وامر بكل ما أمرك الله به وعرفته بالوحي . فالجواب ان مثل هذا القول مخالف لما ذكرنا وما لم نذكر من أقوال السلف والخلف ولا يمكن أن يراد من كل آية ولا من مجموع الآيات المتقدمة ، وما يحتمله منها كآيات الامر والنهي المدنية لابد أن يكون اللفظ فيها عاما يشمل المعروف في الشرع وفي العادات والمعاملات ولا يظهر هنا في آية الاعراف التي هي الأصل الأول لانها الأولى في الموضوع ، ولم يكن قد نزل قبلها أحكام يفسر بها العرف ويحال عليها فيه — فما قاله صاحب لباب التأويل هو من قشره لا من لبابه ، وأول مايرد عليه انه اذا كان المراد من العرف المعروف بالوحي يقال فيه انه لم يكن قبل الامر به معروفا وبعد الامر به صار من قبيل تحصيل الحاصل

نعم ان مايتقرر بنص الشرع يصير من جملة المعروف الذي هو ضد المجهول كما أنه يكون بالضرورة من المعروف الذي هو ضد المنكر ، ويبقى تحكيم العرف والمعروف بالمعنى اللغوي العام معتبراً فيما لا نص فيه بخصوصه ولامة فيه عرف

غير معارض بنص ، ولا يستقيم نظام الامة على أساس ثابت إذا كان أمر العرف والمعروف فيها فوضى وغير مقيد بأصول وأحكام وفضائل ثابتة ، فلابد من شيء ثابت وهو مالا تختلف فيه المصالح والمنافع باختلاف الزمان والمكان وأحوال المعيشة ولا بد من شيء يحكم فيه العرف وهو مايقابله ، ولهذا جاء الشرع الحكيم بهما معاً ، ولا يضر مع هذا اختلاف الناس فيما يعرفون وينكرون فليكن المعروف كما قال الخصاص من أئمة الحنفية : مايستحسن في العقل فعله ولا تنكره العقول الصحيحة. فيكفي السلفيين المحافظة على النصوص الثابتة إذ لا يمكن أن يستنكر المؤمن ماجاء عن الله ورسوله نصاً حتما لا اجتهاد فيه ، وليكن للجماعة بعده رأي فيما يعرفون وينكرون ، ويستحسنون ويستهجنون ، يكون عمدتهم فيه جمهور العقلاء والعلماء وأهل الادب والفضيلة في كل عصر

(الامر الثالث) الاعراض عن الجاهلين وهم السفهاء بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم ، ولا علاج أرقى لاذاهم من الاعراض عنهم ، وشرهم في هذا العصر مرتزقة صحف الاخبار المنتشرة ، فان سفهاءهم شر من سفهاء الشعراء في العصور السابقة ، وقد قل اشتغال الشعراء في عصرنا هذا فلا أعرف لشاعر مشهور من القذع والبذاء في الهجو شيئاً مما نعهد في الصحف التي يعبرون عنها بالساقطة ، وكم من صحيفة قائمة ناهضة بالثروة شر من ساقطة باقية ، وانما يجب الاعراض عن السفهاء لأنهم لايطلبون الحق اذا فقدوه ، ولا يأخذون فيما يخالف أهواءهم اذا وجدوه ، ولا يرعون عهداً ، ولا يحفظون وداً ، ولا يشكرون من النعمة إلا ما اتصل مدده ، فاذا انقطع عاد الشكر كفراً ، واستحال المدح ذما

أكثر ما كتب المفسرون في هذه الآية مادلت عليه من الآداب ، وأقله مااشتملت عليه من أصول الاحكام، وروي عن جدنا الامام جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال : ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الاخلاق منها ، ووجهوه بأن الاخلاق ثلاثة بحسب القوى الانسانية ، عقلية وشهوية وغضبية ، فالعقلية الحكمة ومنها الامر بالمعروف ، والشهوية العفة ومنها أخذ العفو ، والغضبية الشجاعة ومنها الاعراض عن الجاهلين. وروى الطبري مرسلا وابن مردويه موصولا من حديث

جابر وغيره لما نزلت (خذ العفو وأمر بالعرف) سأل النبي ﷺ جبريل عنها فقال «لا أعلم حتى أسأل ثم رجع فقال إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك» اهـ من فتح الباري ومراد الامام أعلى وأشمل من ذلك وفهمه أبعد وأوسع من فهم من علله أو فسره كما علمت من تفسيرها في الجملة

وذكر ابن كثير أن بعض الحكماء أخذ هذا المعنى فسبكه في بيتين فيهما جناس فقال:

خذ العفو وأمر بعرف كما … أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولِن في الكلام، لكل الانام … فمستحسن من ذوي الجاه لين

وقال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن: قال علماؤنا هذه الآية من ثلاث كلمات، قد تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، حتى لم يبق فيها حسنة إلا أوعتها، ولا فضيلة إلا شرحتها، ولا أكرومة إلا افتتحتها، وأخذت الكلمات الثلاث أقسام الاسلام الثلاثة: فقوله (خذ العفو) تولى بالبيان جانب اللين، ونفي الحرج في الاخذ والاعطاء والتكليف، وقوله (وامر بالعرف) تناول جميع المأمورات والمنهيات، وأنهما ما عرف حكمه، واستقر في الشريعة موضعه، واتفقت القلوب على علمه، وقوله (وأعرض عن الجاهلين) تناول جانب الصفح بالصبر الذي يتأتى للعبد به كل مراد في نفسه وغيره. ولو شرحنا ذلك على التفصيل لكان أسفاراً. اهـ. ومن مباحث البلاغة في الآية أن ما جمعته هذه الكلمات الثلاث من المعاني العالية هو من اعجاز إيجاز القرآن، الذي لا مطمع في مثله لانس ولا جان. والله أعلم



﴿نموذج من تفسير الجزء الاول﴾

(٢)

وهو مما زدته في تفسير قوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله) مما كنت كتبته في عهد الأستاذ الإمام ونشر في المنار

إعجاز القرآن بتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر

(الوجه السابع) اشتمال القرآن على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله في الخلق، وهذه مرتبة فوق ما ذكرناه في الوجه السادس من عدم نقض تقدم العلوم لشيء مما فيه ، ولا تدخل في المراد من أخبار الغيب المبينة في الوجه الخامس وإن كان لبعضها اتصال بقصص الرسل عليهم السلام ونحن ننبه على كل ما علمناه من هذا النوع في محله من تفسير أجزائه، ونشير هنا إلى بعضه فمن ذلك قوله تعالى (١٥: ٢٢ وأرسلنا الرياح لواقح) كانوا يقولون فيه إنه تشبيه لتأثير الرياح الباردة في السحاب بما يكون سببًا لنزول المطر بتلقيح ذكور الحيوان لإناثه ، ولما اهتدى علماء أوربة إلى هذا وزعموا أنه مما لم يسبقوا إليه من العلم صرح بعض المطلعين على القرآن منهم بسبق العرب إليه . قال مستر (اجنيري) المستشرق الذي كان أستاذ اللغة العربية في مدرسة أكسفورد في القرن الماضي: ان أصحاب الإبل قد عرفوا ان الريح تلقح الاشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوربة بثلاثة عشر قرنا .اه نعم ان أهل النخيل من العرب كانوا يعرفون التلقيح إذ كانوا يتقلون بأيديهم اللقاح من طلع ذكور النخل إلى اناثها ولكنهم لم يكونوا يعلمون ان الرياح تفعل ذلك ولم يفهم المفسرون هذا من الآية بل حملوها على المجاز

ومنه قوله تعالى (٢١: ٣٠ أو لم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) أي أكذّب الذين كفروا بآياتنا ولم يعلموا ان السموات والارض كانتا مادة واحدة ففتقناهما وخلقنا منها هذه الاجرام السماوية التي تظلهم ، وهذه الارض التي تقلهم ، وهذه المادة هي

المبينة في قوله تعالى (٤١ : ١١ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) الخ وهذا شيء لم يكن يعرفه العرب ولا غيرهم من أهل الارض . وكذلك خلق كل الاشياء من الماء، وهو أصرح في الآية مما قبله

ومنه قوله تعالى (٥١ : ٤٩ ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين) وقوله (١٣ : ٣ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وهذه السنة الالهية في النبات أصل لسنة التلقيح المذكورة آنفا فان المراد بها ان الريح تنقل مادة اللقاح من الذكر إلى الانثى كما تقدم ، وفي هذا المعنى عدة آيات أعمها وأظهرها وأعجبها قوله تعالى (٣٦ : ٣٦ سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون)

ومنه قوله تعالى (١٥ : ١٨ والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) ان هذه الآية هي أكبر مثار للعجب بهذا التعبير (موزون) فان علماء الكون الاخصائيين في علوم الكيميا والنبات قد أثبتوا أن العناصر التي يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة في كل نوع من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين المقدرة من أعشار الغرام والميليغرام وكذلك نسبة بعضها إلى بعض في كل نبات ، أعني أن هذا التعبير بلفظ « كل » المضاف إلى لفظ « شيء » الذي هو أعم الألفاظ العربية الموصوف بالموزون - تحقيق لمسائل علمية فنية لم يكن شيء منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر ، ولا يمكن بيان معناها بالتفصيل إلا بتصنيف كتاب مستقل

ومنه قوله تعالى (٣٩ : ٥ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) تقول العرب كار العمامة على رأسه إذا أدارها ولفها، وكورها بالتشديد بصيغة مبالغة وتكثير ، فالتكوير في اللغة إدارة الشيء على الجسم المستدير كالرأس ، فتكوير الليل على النهار نص صريح في كروية الارض وفي بيان حقيقة الليل والنهار على الوجه المعروف في الجغرافية الطبيعية عند أهلها . ومثله قوله تعالى (يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا)

ومنه قوله تعالى (٣٦ : ٣٨ والشمس تجري لمستقر لها - الى قوله - وكل في فلك يسبحون) فهو موافق لما ثبت في الهيئة الفلكية مخالفا لما كان يقوله المتقدمون

ومنه الآيات المتعددة الواردة في خراب العالم عند قيام الساعة وكون ذلك

يحصل بقارعة ترج الارض رجاً، وتصحبها فترجها رجاً، وتبس جبالها بساً فتكون هباء منبثاً، وحينئذ تتناثر الكواكب، لبطلان ما بينها من سنة التجاذب، والآيات في هذا وفي قبله تدل دلالة صريحة على بطلان ما كان يقوله علماء اليونان ومقلدتهم من علماء العرب في الافلاك والكواكب والنجوم، وعلى اثبات ما تقرر في الهيئة الفلكية العصرية في ذلك وفي نظام الجاذبية العامة، ويجد القارئ تفصيل هذا في عدة مواضع من هذا التفسير

فهذا النوع من المعارف التي جاءت في سياق بيان آيات الله وحكمه كانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر في الغالب حتى ان المسلمين أنفسهم كانوا يتأولونها ويخرجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم في كل عصر من ظواهر وتقاليد، أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة، فاظهار ترقي العلم لحقيقتها المبينة فيه مما يدل على أنها وحي بها من الله تعالى.

هذه أمثلة من مسائل العلوم الكونية والفنون الطبيعية التي خطرت بالبال عند الكتابة من غير تفكر ولا مراجعة الا لأعداد الآيات والسور ولا بد من تعزيزها ببعض الأمثلة الخاصة بالتاريخ، وليس التاريخ من حيث هو تاريخ أحد العلوم التي تطلب من الكتاب الالهي، ولم يذكر فيه شيء منه بقصد سرد حوادث التاريخ، وانما جاء تابعة فيه لذكر أهم الادلة للعظة والاعتبار، وبيان سنن الله تعالى في الامم والاقوام، وتثبيت قلب خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، كما أن ذكر السموات والارض وما بينهما وما في الارض من المواليد الثلاثة لم يذكر شيء منه لبيان حقائق الموجودات في أنفسها، وانما ذكرت في سياق آيات الله تعالى الدالة على علمه وقدرته وحكمته ورحمته وفضله على عباده الخ وقد تضمن كل من هذا وذاك بدقة التعبير وايجاز البيان، آيات أخرى تظهر آناً بعد آن، دالة على أنواع من اعجاز القرآن، وكونه وحياً من الرحمن، فكتابه تعالى مظهر لقوله (كل يوم هو في شان)

أكتفي من هذا النوع الذي له علاقة بالتاريخ بمسألة عظيمة الشأن تشتمل على شواهد كثيرة منه وهي حكم القرآن الحق على التوراة والانجيل اللذين كان يدين الله تعالى بهما أعظم شعوب الارض مكانة في العالم وأوسعهم علماً وحضارة ولا يزال الكثيرون منهم يقدسونهما، مع بيان بعضهم لما نقض العلم منهما وكذا سائر

الكتب التي يعبرون عن مجموعها بالعهدين القديم والجديد .

ماهذا الحكم الذي صدر من عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، على لسان عبده ورسوله النبي الامي الذي لم يقرأ في حياته سفراً ، ولم يكتب سطراً ، ولم يحط بشيء من أخبار التاريخ خبراً ؟ ملخص هذا الحكم أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى قد أوتوا نصيباً منه ونسوا نصيباً وحظاً منه، ولم يحفظوه كله، ولم يضيعوه كله، وأنهم حرفوا ما أوتوه عن مواضعه تحريفاً لفظيا ومعنويا كما يفيده الاطلاق [1] وأنهم غلوا في دينهم فزادوا فيه مالم يأذن به الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، يحلون لهم ويحرمون عليهم مالم يشرعه الله ، وأنهم قصروا في إقامته من جهة أخرى فعملوا بما وافق أهواءهم منه وتركوا ما يخالفها كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، وأن اليهود قالوا على مريم بهتاناً مبيناً ، والنصارى غلوا فيها غلواً عظيما ، فقالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقالوا ثالث ثلاثة (وما من إله إلا إله واحد [illegible] عند القارىء ، تفصيلها مع تفسيرها الحق المؤيد بالتاريخ الصحيح الذي حققه علماء أوربة وغيرهم بعد الاسلام، المصدق للقرآن الحكيم في حكمه الذي كان مجهولا بتفصيله عند جميع الناس [2]

وقد قام في هذه السنين بعض كبار رجال الدين في بلاد الانكليز يكتبون في الجرائد ماقرروه في جمعيات الكنائس من أن الأناجيل لا يثبت ألوهية المسيح وقد نشرنا بعض ما اطلعنا عليه في الجرائد الانكليزية من هذه التحقيقات وسننشر غيره في مجلتنا الاسلامية (المنار)

وقد ثبت عندنا أن مستقلي الفكر من أهل أوربة يؤمنون بما جاء به القرآن من حقيقة أمر المسيح وهو أنه بشر ممتاز بروح قدسية من الله ونبي له ولكن أكثرهم

«١» راجع تفسير الآية الثالثة من السورة الثالثة في الجزء الثالث من التفسير (ص١٥٦—١٥٩) وراجع تفسير الآية ٤٤ من السورة ٤ (ص١٣٦ من الجزء الرابع) والآية ١٥ من السورة ٥ (ص ٢٨٢ من الجزء ٦)

«٢» راجع تفسير سورة المائدة والنظر في فهرس الجزء السادس من التفسير كلمات أهل الكتاب والتوراة والانجيل

لا يعلمون انه مما جاء به القرآن — وبين كافر به — وأما عقيدة الكنيسة بربوبيته وألوهيته فهي محصورة في رجالها وعامة المقلدين لهم ، وقد أخبرني قسيس كبير من الكاثوليك حرمته الكنيسة وأخرجته من طغمة كهنتها ان كبار علمائها موحدون كالمسلمين ولولا خشية ارتداد العوام لصرحوا به وبنفي التثليث كبعض قسوس البروتستنت ولا يزال الموحدون يكثرون في أوربة والولايات المتحدة الاميركانية عاما بعد عام ، ويقربون من الايمان بالقرآن (الله أكبر الله أكبر ، انهم سوف يفعلون)

فمن أين جاءت هذه الحقائق لمحمد بن عبد الله الأمي بعد ثلاث وأربعين سنة عاش معظمها في عزلة عن العالم وعلومه يرعى في أوائلها الغنم في جبال مكة وشعابها ، والتجر في أثنائها سنين قليلة فما كان يعاشر فيها أحداً ، وهي التي ظل المسلمون يجهلون مراد القرآن منها بالتحقيق والتفصيل حتى بعد فتحهم العالم واطلاعهم على علومه وتواريخه إلى أن وصل علم التاريخ وغيره إلى الدرجة المعروفة

كان بعض أهل الكتاب وللاحدة من غيرهم يرون أن أكبر الشبهات على ما في القرآن من قصص الرسل وأقوامهم — بأنها مقتبسة من هذه الكتب المقدسة عند القوم ومما كانوا عليه من التقاليد والمذاهب باحتمال أنه ﷺ سمعها من بعضهم في أثناء سفره بالتجارة إلى الشام . وكانوا يعدون ما خالف تلك الكتب من آيات القرآن خطأ سببه عدم جودة الحفظ أو خطأ ممن سمع النبي ﷺ ذلك منهم أو تعمداً منهم لغشه كما غش بعض اليهود الذين ادعوا الاسلام خداعا بعض الصحابة والتابعين بأخبار كثيرة أدخلوها في تفسير القرآن وكتب الوعظ والرقائق

وكان من الادلة على دحض هذه الشبهة أنه لا يعقل أن يكون محمد ﷺ تلقى كل هذه القصص من بعض أهل الكتاب في رحلته إلى الشام مع عمه أبي طالب وهو ابن تسع سنين أو ١٢ سنة ، ولا في رحلته مع ميسرة مولى خديجة (رض) وهو وإن كان في هذه الرحلة شابا له ٢٥ سنة إلا أنه لم ينفرد دون ميسرة وسائر تجار قريش للدراسة ولا غيرها ، بل لم يلبثوا إلا أياما في بلدة (بصرى) باعوا واشتروا وعادوا ، ولا يعقل أن يكون سمع فيها أخبار جميع الرسل سراً أو جهراً ، وحفظها من هذه الكتب حفظا ، ثم لخصها بعد عشرين سنة تقريباً في هذه السور — ولم

يجد أهل مكة عليه شبهة في هذا الباب إلا وقوفه أحياناً على قين (حداد صانع السيوف) رومي كان بمكة فقالوا : انه هو الذي يعلمه ، وهو لم يكن يحسن العربية وفيه نزل (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر : لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) وقد تقدم في مسألة اشتمال القرآن على أخبار الغيب الماضية من هذا البحث تصريح الآيات بأنه ﷺ لم يكن يعلم ما قصته السور منها ولا قومه ، ولم يكن لأحد من خصومه المشركين أن يكذب أو يماري في ذلك

هذا وإن ما لخصناه هنا من حكم القرآن عليها يثبت أنه حكم علي نزل من فوق السموات العلى : حكم العليم الحكيم الحكم العدل المهيمن ، وأن تحقيق المحققين من مؤرخي الامم وتحقيق العقلاء من البشر قد أثبت ما أثبته هذا الحكم ، وقد نفى ما نفاه ، أليس هذا أصح برهان على كونه حكم الله ، لا حكم عبده محمد بن عبد الله ؟ بلى والله ، ثم بلى والله ، ثم بلى والله لا يماري في ذلك إلا متعصب أعمته الهوى

ومن قرأ التوراة والأناجيل [illegible] القرآن من أخبار الرسل يرى أمراً آخر ، يرى أن القرآن [illegible] ومن أدب وفضيلة ، ومن عبرة وموعظة [illegible] الأخبار حسنة ، وسكت عن كل ما فيهما مما ينافي ذلك ويخل به ، أو يجعل أفضل البشر قدوة سيئة ، وصرح بنقض ما طرأ على أهل الكتاب من نزغات الشرك والوثنية . فان فرضنا تنزلا أن هذا من صنع محمد بن عبد الله الامي ، أفلا يكون برهاناً على أنه في شخصه أرقى من جميع الانبياء والمرسلين علما وعقلا وهداية وارشاداً ؟ بلى ولكن كيف يعقل حينئذ أن يكونوا أنبياء مرسلين ، وموحى اليهم من الله أو ملهمين الحق أن نفي نبوته ﷺ يقتضي نفي النبوة وابطال الرسالة من أصلها ، لانها هي التي تعقل لذاتها ، وانما يظهر ثبوت غيرها بالتبع لثبوتها ، واننا رأينا بعض الكافرين بالوحي ، من الباحثين المستقلي الفكر ، يفضلون محمداً ﷺ على جميع الخلق ، ومنهم الدكتور شبلي شميل السوري المشهور فقد صرح بذلك قولا وكتابة ، وأثبته نظما ونثرا ،

وقد آن أن نبين وجه دلالة القرآن على نبوته صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، ومن آمن به وشاركهم في الاهتداء بهديه من بعده إلى يوم القيامة

وجه دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ

(تمهيد) الايمان بالنبوة والرسالة ، يبنى على الايمان بالربوبية والالهية ، فلا يخاطب باثباتها والدليل عليها إلا من يؤمن بالله تعالى وصفاته من العلم والحكمة والمشيئة والقدرة وتدبير أمر العالم ، وأكثر البشر يؤمنون بوجود الخالق المدبر صاحب السلطان الغيبي لأنه مما أودع في الفطرة البشرية ، ولا يعقل هذا النظام المشاهد في العالم بدونه ، كما هو مقرر في مواضعه ، ولكن الكثيرين يخطئون في فهم صفاته والكلام في تدبيره وتقديره ، لاختلاف أنظارهم وتقاليدهم في ذلك . والذين حرموا هذا الايمان قسمان : همج من سكان الغابات الوحشية ، وأصحاب شبهات طارئة ، ومثل الاول مثل الخداج الذي يولد ناقصاً . ومثل الثاني مثل من يصاب بعض مشاعره أو أعضائه ، ومراكز الادراك في المخ يصاب بعضها بالمرض أو الضعف دون بعض ، فلا يغترن أحد من المتقين بكفر بعض المتفننين لبعض العلوم والفنون ، الذين شغلتهم الصنعة عن الصانع ، كما شغل حب ليلى مجنون بني عامر عن شخصها حتى قيل [illegible]

وأكثر الذين يؤمنون بالله تعالى يؤمنون بالرسل الذين خصهم الله بنوع من العلم والهدى بغير تعلم ولا كسب ، وأيدهم بآيات منه دانت لها عقول المستعدين للهداية وخضعت قلوبهم فآمنوا واهتدوا ، وكانت حالهم البشرية بعد الايمان والهدى خيراً مما كانوا عليه هم وآباؤهم قبل ذلك صلاحا ، وقد بعث الله تعالى رسلا إلى جميع الامم دعوها إلى أصول الدين الثلاثة المبينة في قوله تعالى (٢ : ٦٢ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين : من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون)

فالرسل عليهم السلام كانوا متفقين في الدعوة الى الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، وانما كانوا يختلفون في تفصيل الاعمال الصالحة والشرائع المصلحة بحسب اختلاف استعداد اممهم ، وقد طرأت على اتباعهم من بعدهم بدع وثنية وخرافية وضاعت أكثر تعاليمهم من الامم القديمة ، وانما بقيت بقية صالحة منها عند المتأخرين من اليهود والنصارى فيها من الشوائب ما أشرنا اليه آنفاً ، وكذلك بقيت في جميع

الأديان القديمة آثار تاريخية تدل على توحيد الله تعالى كما تراه في تاريخ قدماء المصريين ووثني الهند واليابان والصين

ومما حفظ من اخبار أنبياء بني اسرائيل أن الله تعالى أيدهم بالاخبار عن بعض المغيبات ، وأيد المرسلين منهم كموسى وعيسى عليهم السلام اجمعين بآيات أخرى من خوارق العادات ، فقامت بها حجتهم على الناس فآمن بها المستعدون ، وكابرها المعاندون المتكبرون ، واعرض عنها المقلدون الجامدون .

(للبحث بقية)

فتاوى المنار

حكم بناء فنادق المسافرين وإجارتها لغير المسلمين

(س ٥) جاءنا من عمر بك الداعوق [illegible] جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية العاملين في بيروت كتابا يتضمن الاستفتاء في بناء فندق للجمعية كفنادق مصر الكبرى وتأجيره . . . فأجبناه بالجواب الآتي المتضمن للسؤال :

من محمد رشيد رضا إلى حضرة الوطني العمراني العامل عمر بك الداعوق .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد فقد كتبت إليّ بأن جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت قد طلب منها إنشاء فندق على الطراز الحديث كفنادق القطر المصري الكبرى لاستثماره بالاجارة ، وصرف أجرته السنوية في تعليم أولاد فقراء المسلمين وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة

وسألتني هل في تأجير الفندق محذور شرعي يحرمه ؟ ولم تذكر لي ماعرض لك من الشبهة على تحريمه فكانت سبب السؤال ، وما تأجير الفندق إلا كتأجير دور السكنى للأفراد وأهل بيوتهم وحوانيت التجارة ومخازنها ، وأنا أعلم أن

للجمعية شيئاً من ذلك تؤجره كما أن لبعض أعضائها مثل ذلك ، فما بالكم تؤجرون هذه المباني ولا تستفتون في تأجيرها لان الاجارة من العقود المعلوم حلها من الدين بالضرورة ، وخصصتم إجارة الفندق بالاستفتاء والحال ان الرادصرف أجرته في أشرف الاعمال وأفضلها ويتسامح في المصالح العامة ما لا يتسامح في المنافع الخاصة ؟

فاذا كانت الشبهة على هذا ان بعض المسافرين الذين ينزلون في هذه الفنادق قد يشربون الخمر فيها ، والمستأجر يعدها لهم ويبيعهم اياها ، فسكان البيوت والدور وغيرها وتجار الحوانيت منهم من يشربون الخمر ويفعلون غير ذلك من المعاصي كالبيوع الباطلة أو الفاسدة والغش ، ولا نعلم ان أحداً من أئمة الفقه اشترط في صحة اجارة الدار أن يكون المستأجر مسلماً من الصالحين المتقين لئلا يرتكب فيها محرما . فالتأجير لغير المسلم وللمسلم الفاسق جائز بالاجماع ، وانا نرى وزارة الأوقاف بمصر ونظار الاوقاف الخاصة في هذه البلاد وغيرها من بلاد الاسلام يؤجرون الدور الموقوفة للمسلمين وغير المسلمين ولا يبحثون عن عقائدهم ولا عن أعمالهم . وأوقاف المساجد والاعمال الخيرية في ذلك سواء . والفنادق الكبرى في مصر يستأجرها ويدير نظامها أناس ليسوا من المسلمين ولا من دار الاسلام . وقد نص الفقهاء على ان غير المسلم لا يكلف مراعاة الشريعة الاسلامية في الحلال والحرام كالعبادات ، كما أن المسلم نفسه لا يكلف مراعاة الاحكام الشرعية الاسلامية المدنية في غير دار الاسلام ، كشروط البيع والاجارة والشركات ، وكذلك يكون فندق جمعيتكم في بيروت غالبا وان كان فيها فنادق أخرى صغيرة محلية يتولى ادارتها بعض المسلمين .

وأنتم تعلمون ان بيروت وسائر سورية الآن ليست دار اسلام أي ان الاحكام المدنية فيها ليست على الشريعة الاسلامية ، والسلطة فيها ليست في أيدي المسلمين ، هذا وان أكثر أحكام المعاملات المدنية في الشريعة الاسلامية اجتهادية مبنية على ضبط المعاملات التي تدور على حفظ المصالح ودرء المفاسد ، وقد أفتى الفقهاء بحل جميع أموال أهل الحرب فيما عدا السرقة والخيانة ونحوهما ،

فما كان برضاهم أو عقودهم فهو حلال لنا منهما يكن أصله حتى الربا الصريح ، ويجري على هذا مسلمو بعض الأقطار كالصين وكذا بعض بلاد الهند فيما بلغنا .
ومن أفظع الجهل بأحكام شريعتنا وحكمها أن نجعلها وهي الحنيفية السمحة التي غايتها سعادة الدارين سببا لشقاء المسلمين وفقرهم واستيلاء غيرهم على ثروتهم في دارهم وغير دارهم ، وهم يعلمون ان جميع الاحكام المالية حتى الدينية منها كالزكاة لم تشرع الا بعد ان صار للمسلمين دار تنفذ فيها احكامها بعد الهجرة النبوية

فان قلت : هل يحل للمسلم ان يبني معبداً ليؤجره لأهل ملة يعبدون فيه غير الله تعالى او حانة للخمر او ماخوراً للفسق يؤجرهما لغير المسلمين لينتفع بالمهم ؟ قلت لا يحل له ذلك لأنه يبني لاجل الشرك بالله ونشر الفسق الذي حرمه الله ابتداء وقصداً لذلك . والفندق ليس كذلك اذ لا يبنى لأجل الشرك ولا لأجل الفسق ولا يؤجر لأجلهما مباشرة وقصداً ، بل القصد منه ايواء المسافرين فهو كالدور التي يسكنها الازواج والاسر والمستشفيات التي تعد لمداواة المرضى ، وفي كل من الدور والمستشفيات قد يرتكب بعض المحرمات من شرب الخمر وغيره من المكلفين بفروع الشريعة وغيرهم ، ولكن الدار لم تبن ولم تؤجر لاجل هذه المحرمات التي قلما يخلو منها مكان في هذا العصر ، وكذلك المستشفى

وههنا مدرك آخر للنازلة المسؤول عنها وهي مراعاة حال العصر التي يعبر عنها الفقهاء بعموم البلوى فمن المعلوم ان مدينة بيروت أكثر أهلها من غير المسلمين وان المسلمين فيها قد فشت فيهم ضروب من الفسق كشرب الخمر والزنا من الكبائر ، والظهور على عورات النساء المحارم وغير المحارم من الصغائر التي هي ذرائع الكبائر ، والكثير من دورها وحوانيتها أو أكثرها للمسلمين ، فاذا لم يبح لهم اجارة دورهم وحوانيتهم إلا لمسلم صالح تقي يرجح المستأجر أنه لا يرتكب فيها محرما ، فان أكثرها يصير معطلا خاليا لا ينتفع به بل يسرع اليه الخراب ، كما يسرع الى أهله الفقر والفناء ، لأن المسلم الصالح التقي المأمون فسقه قليل وربما يكون مالك البيت يسكنه

وهذا حجة الاسلام الغزالي من اكبر فقهاء الشافعية وصوفية المسلمين الورعين قد أفتى بأن المال اذا حرم كله في بلد أو قطر حل كله . وقال هو وغيره ان البلاد

التي يغلب أو يعم فيها المال الحرام بالمعاملات الباطلة والفاسدة لا يؤخذ فيه بقول من قال انه يتعدى بل يكفي المسلم الورع فيه ان يأخذ المال من طريق حلال وان كان أصله حراما

فاذا راعينا مع هذا قاعدة امام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى في كون العبادات يؤخذ فيها بظواهر النصوص من الكتاب والسنة وكون مدار أحكام المعاملات على المصلحة وان النصوص ترد اليها ، وتذكرنا مع هذا انه ليس لدينا نص من الكتاب ولا من السنة في تحريم بناء الفنادق ولا تحريم اجارتها يعارض أصل الاباحة أو يعارض المصلحة المعلومة بالقطع لم يبق لديك احتياج الى دليل آخر على الحل الذي لا تشوبه شبهة

وفوق هذا كله خطر تحريم مالم يحرمه الله تعالى في كتابه ولا على لسان رسوله بنص قطعي لا شبهة فيه . هذا الخطر أكبر وأشد وأعظم من خطر اتقاء شبهة في عمل حلال في الأصل كالشبهة التي يحتاط فيها في زماننا

يقول علماء الأصول ان التحريم هو حكم الله المقتضي للترك اقتضاء جازما ، فأين هذا الخطاب في مسألتنا ؟ قد أنزل الله تعالى في أم الخبائث وأم الرذائل قوله لرسوله (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما) وما كان ضرره أكبر من نفعه والمفسدة فيه أكبر من المصلحة بتجارب الناس فهو محرم عند جميع فقهائنا ، ولكن رسول الله ﷺ لم يحرم الخمر والقمار على جميع المسلمين بهذه الآية التي أخبر فيها رب العالمين المحيط بكل شيء علما بان اثمهما أكبر من نفعهما ، فعلم منه أن هذا لا يقتضي ترك جميع الناس لهما اقتضاء قطعياً جازما ، اذ بقي فيه مجال لاجتهاد الافراد في الموازنة بين النفع والضرر ولذلك ترك الخمر والميسر بعض الصحابة لأنهم فهموا منها التحريم ، وظل بعضهم يشرب الخمر ويأكل مال الميسر ، وظل عمر بن الخطاب (رض) يقول : اللهم بين لنا في الخمر بياناً - حتى اذا نزلت آيات سورة المائدة آمرة باجتنابها أمراً صريحاً قطعياً لا يحتمل التأويل مؤكدة له ببيان علته وبقوله تعالى (فهل أنتم

منتهون)؟ قال جميع المسلمين قد انتهينا يا ربنا ، وصار كل من عنده خمر يريقها حتى سالت بها شوارع المدينة كأودية السيل

إن التحريم الديني على العباد حق الله وحده وقد قال (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب) الآية . وقال في بيان أصول الكفر والمعاصي الكلية (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) قال بعض المحققين إن هذه المحرمات قد ذكرت على طريقة الترقي في الغلظة والشدة كل نوع أغلظ مما قبله، وذلك أن كلا من المعاصي والشرك والكفر قسمان قاصر على فاعله ، ومتعد إلى غيره ، فمعصية البغي على الناس أشد من الفاحشة والإثم القاصر على فاعله ، والشرك بالقول على الله تعالى بغير علم أغلظ من الشرك القاصر على فاعله ، وقد صرح الكتاب العزيز بأن القول في الشرع بغير وحي من الله تعالى شرك ، في قوله تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) وقوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) وقد فسرها النبي ﷺ نفسه في حديث عدي بن حاتم بأنهم كانوا يحلون لهم ويحرمون عليهم فيتبعونهم ، فهذا معنى اتخاذهم أربابا . ويراجع النص في التفسير المأثور من شاء

أكتفي بهذا في بيان دحض شبهة تحريم بناء الفندق وتحريم إجارته (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل)

قاعدة جليله

(فيما يتعلق بأحكام السفر والاقامة)

(لشيخ الاسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى)

(تابع لما قبله)

(النوع الثاني) من موارد النزاع ان عثمان كان لا يرى مسافرا الا من حمل الزاد والمزاد دون من كان نازلا فكان لا يحتاج فيه الى ذلك كالتاجر والثاني (١) والجابي الذين يكونون في موضع لا يحتاجون فيه إلى ذلك ولم يقدر عثمان للسفر قدرا بل هذا الجالس عنده ليس بمسافر وكذلك قيل إنه لم ير نفسه والذين معه مسافرين على انا سارت منى معمورة، وذكر ابن أبي شيبة عن ابن سيرين انه قال كانوا يقولون السفر الذي تقصر فيه الصلاة الذي يحمل فيه الزاد والمزاد ومأخذ هذا القول والله أعلم أن القصر انما كان في السفر لا في المقام والرجل اذا كان مقيما في مكان يجد فيه الطعام والشراب لم يكن مسافرا بل مقيما بخلاف المسافر الذي يحتاج أن يحمل الطعام والشراب فان هذا يلحقه من المشقة ما يلحق المسافر من مشقة السفر وصاحب هذا القول كأنه رأى الرخصة انما تكون للمشقة والمشقة انما تكون لمن يحتاج الى حمل الطعام والشراب، وقد نقل عن غيره كلام يفرق فيه بين جنس وجنس روى ابن ابى شيبة عن علي بن مسهر عن ابى اسحاق الشيباني عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عبد الله بن مسعود قال لا يغرنكم سوادكم هذا من صلاتكم فانه من

(١) كذا بالأصل

مصركم فقوله من مصركم يدل على انه جعل السواد بمنزلة المصر لما كان تابعا له وروى عبد الرزاق عن معمر عن الاعمش عن ابراهيم التيمي عن أبيه قال كنت مع حذيفة بالمدائن فاستأذنته أن آتي اهلي بالكوفة فأذن لي وشرط عليّ أن لا افطر ولا اصلي ركعتين حتى ارجع اليه وبينهما نيف وستون ميلا وعن حذيفة ان لا يقصر الى السواد وبين الكوفة والسواد تسعون ميلا وعن معاذ بن جبل وعقبة بن عامر لا يطأ احدكم بماشية احداب الجبال أو بطون الاودية وتزعمون انكم سفر لا ولا كرامة انما التقصير في السفر من البا آت(١) من الافق إلى الافق

(قلت) هؤلاء لم يذكروا مسافة محدودة للقصر لا بالزمان ولا بالمكان لكن جعلوا هذا [illegible] سفرا كما جعل عثمان السفر ما كان فيه حمل زاد ومزاد [illegible] ما قصده عثمان من ان هذا لا يزال يسير في مكان يحمل فيه الزاد والمزاد فهو كالمقيم فقد وافقوا عثمان لكن ابن مسعود خالف عثمان في اتمامه بمنى ، وان كان قصدهم ان اعمال البلد تبع له كالسواد مع الكوفة وانما المسافر من خرج من عمل الى عمل كما في حديث معاذ من افق الى افق فهذا هو الظاهر ولهذا قال ابن مسعود عن السواد فانه من مصركم وهذا كما ان ماحول المصر من البساتين والمزارع تابعة له فهم يجعلون ذلك كذلك وان طال ولا يجدون فيه مسافة وهذا كما ان المخاليف وهي الامكنة التي يستخلف فيها من هو خليفة عن الامير العام بالمصر الكبير . وفي حديث معاذ من خرج من مخلاف الى مخلاف يدل على ذلك ماروا محمد بن بشار

«١» كذا بالأصل

حدثنا ابو عامر العقدي حدثنا شعبة سمعت قيس بن عمران بن عمير يحدث عن ابيه عن جده انه خرج مع عبدالله ابن مسعود وهو رديفه على بغلة له مسيرة اربعة فراسخ فصلى الظهر ركعتين، قال شعبة اخبرني بهذا قيس بن عمران وابوه عمران بن عمير شاهد وعمير مولى ابن مسعود، فهذا يدل على ان ابن مسعود لم يحد السفر بمسافة طويلة ولكن اعتبر امراً آخر كالاعمال وهذا أمر لا يحد بمسافة ولا زمان لكن بعموم الولايات وخصوصها مثل من كان بدمشق فاذا سافر الى ماهو خارج عن اعمالها كان مسافراً . واصحاب هذه الاقوال كلهم رأوا ما رخص فيه للمسافر إنما رخص فيه المشقة التي تلحقه في السفر، واحتياجه إلى الرخصة، وعلى أن المتنقل في المصر الواحد من مكان إلى مكان ليس بمسافر، وكذلك الخارج الى ما حول المصر كما كان النبي ﷺ يخرج إلى [illegible] ولم يكن يقصر وكذلك المسلمون كانوا يأتون الجمعة من العوالي ولم يكونوا يقصرون فكان المتنقل في العمل الواحد بهذه المثابة عندهم

وهؤلاء يحتج عليهم بقصر أهل مكة مع النبي ﷺ بعرفة ومزدلفة ومنى، مع ان هذه تابعة لمكة ومضافة إليها وهي أكثر تبعاً لها من السواد للكوفة وأقرب اليها منها فان بين باب بني شيبة وموقف الامام بعرفة عند الصخرات التي في أسفل جبل الرحمة بريد بهذه المسافة وهذا السير وهم مسافرون واذا قيل المكان الذي يسافرون اليه ليس بموضع مقام قيل بل كان هناك قرية نمرة والنبي ﷺ لم ينزل بها وكان بها أسواق وقرب منها عرنة التي تصل واديها بعرفة ولانه لا فرق بين السفر الى بلد تقام فيه وبلد لا تقام فيه اذا لم يقصد الاقامة فان النبي ﷺ والمسلمين سافروا الى مكة وهي بلد عكن

الاقامة فيه وما زالوا مسافرين في غزوهم وحجهم وعمرتهم وقد قصر النبي ﷺ الصلاة في جوف مكة عام الفتح وقال «يا أهل مكة أتموا صلاتكم فانا قوم سفر» وكذلك عمر بعده فعل ذلك، رواه مالك باسناد صحيح ولم يفعل ذلك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر بمنى[1] ومن نقل ذلك عنهم فقد غلط وهذا بخلاف خروج النبي ﷺ الى قبا كل سبت راكبا وماشيا وخروجه الى الصلاة على الشهداء فانه قبل أن يموت بقليل صلى عليهم وبخلاف ذهابه الى البقيع وبخلاف قصد أهل العوالي المدينة ليجمعوا[2] بها فان هذا كله ليس بسفر فان اسم المدينة متناول لهذا كله وانما الناس قسمان الاعراب وأهل المدينة ولأن الرجل منهم [illegible] يذهب ويرجع الى أهله في يومه من غير أن [illegible] ولا يحمل زاد ولا مزاد لا في طريقه ولا في المنزل [illegible] ولا يسمى من ذهب الى بعض مدينته مسافرا ولهذا تجب الجمعة على من حول المصر عند أكثر العلماء وهو يقدر بسماع النداء وبفرسخ ولو كان ذلك سفرا لم تجب الجمعة على من ينشيء لها سفرا فان الجمعة لا تجب على مسافر فكيف يجب أن يسافر لها

وعلى هذا فالمسافر لم يكن مسافرا لقطعه مسافة محدودة ولا لقطعه أياما محدودة بل كان مسافرا لجنس العمل الذي هو سفر وقد يكون مسافرا من مسافة قريبة ولا يكون مسافرا من أبعد منها مثل أن يركب فرسا سابقا ويسير مسافة بريد ثم يرجع من ساعته الى بلده فهذا ليس مسافرا وان قطع هذه المسافة في يوم وليلة ويحتاج في ذلك الى حمل

(١) اي لم يأمروا اهل مكة بالاتمام لانهم يعدون في منى مسافرين
(٢) اي ليصلوا الجمعة

زاد ومزاد فكان مسافرا كما كان سفر أهل مكة الى عرفة ولو ركب رجل فرسا سابقا الى عرفة ثم رجع من يومه الى مكة لم يكن مسافرا يدل على ذلك أن النبي ﷺ لما قال « يمسح المسافر ثلاثة أيام ولياليهن والمقيم يوما وليلة » فلو قطع بريدا في ثلاثة أيام كان مسافرا ثلاثة أيام ولياليهن فيجب أن يمسح مسح سفر ولو قطع البريد في نصف يوم لم يكن مسافرا فالنبي ﷺ انما اعتبر أن يسافر ثلاثة أيام سواء كان سفره حثيثا أو بطيئا سواء كانت الايام طوالا أو قصارا ومن قدره ثلاثة أيام أو يومين جعلوا ذلك بسير الابل والاقدام وجعلوا المسافة الواحدة حدا يشترك فيه جميع الناس حتى لو قطعها في يوم جعلوه مسافرا ولو قطع ما دونها في عشرة أيام لم يجعلوه مسافرا وهذا مخالف لكلام النبي ﷺ

وايضا فالنبي ﷺ في ذهابه الى قبا والعوالي واحد ومجيء اصحابه من تلك المواضع الى المدينة انما كانوا يسيرون في عمران بين الابنية والحوائط التي هي النخيل وتلك مواضع الاقامة لا مواضع السفر ، والمسافر لابد ان يسفر اي يخرج الى الصحراء فان لفظ السفر يدل على ذلك يقال سفرت المرأة عن وجهها اذا كشفته فاذا لم يبرز الى الصحراء التي ينكشف فيها من بين المساكن لا يكون مسافرا قال تعالى (وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن اهل المدينة مردوا على النفاق) وقال تعالى (ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بانفسهم عن نفسه) فجعل الناس قسمين اهل المدينة والاعراب . والاعراب هم اهل العمود واهل المدينة هم اهل المدر فجميع من كان ساكنا في مدر كان من اهل المدينة ولم

يكن المدينة سور يميز به داخلها من خارجها بل كانت محال محال، وتسمى المحلة دارا، والمحلة القرية الصغيرة فيها المساكن وحولها النخل والمقابر ليست ابنية متصلة، فبنو مالك بن النجار في قريتهم حوالي دورهم اموالهم ونخيلهم، وبنو عدي بن النجار دارهم كذلك، وبنو مازن بن النجار كذلك، وبنو سلمة كذلك وبنو ساعدة كذلك، وبنو الحارث بن الخزرج كذلك، وبنو عمرو بن عوف كذلك وبنو عبد الاشهل كذلك، وسائر بطون الانصار كذلك، كما قال النبي ﷺ «خير دور الانصار دار بني النجار ثم دار بني عبد الاشهل ثم دار بني الحارث ثم دار بني ساعدة وفي كل دور الانصار خير» وكان النبي ﷺ قد نزل في بني مالك بن النجار وهناك بنى مسجده وكان حائطا لبعض بني النجار فيه نخل وخرب وقبور فأمر بالنخل فقطعت وبالقبور فنبشت وبالخرب فسويت وبنى مسجده هناك وكانت سائر دور الانصار حول ذلك قال ابن حزم ولم يكن هناك مصر قال وهذا امر لا يجهله احد بل هو نقل الكوافي عن الكوافي وذلك كله مدينة واحدة كما جعل الله الناس نوعين اهل المدينة ومن حولهم من الاعراب، فمن ليس من الاعراب فهو من اهل المدينة، لم يجعل المدينة داخلا وخارجا وسورا وربضا كما يقال مثل ذلك في المدائن المسورة، وقد جعل النبي ﷺ حرم المدينة بريدا في بريد والمدينة بين لابتين، واللابة الارض التي ترابها حجارة سود وقال «ما بين لابتيها حرم» فما بين لابتيها كله من المدينة وهو حرم فهذا بريد لا يكون الضارب فيه مسافرا. وان كان المكي اذا خرج الى عرفات مسافرا فعرفة ومزدلفة ومنى صحاري خارجة عن مكة ليست كالعوالي من المدينة وهذا ايضا

مما يبين انه لا اعتبار بمسافة محدودة فان المسافر في المصر الكبير لو سافر يومين او ثلاثة لم يكن مسافرا والمسافر عن القرية الصغيرة اذا سافر مثل ذلك كان مسافرا فعلم انه لا بد ان يقصد بقعة يسافر من مكان الى مكان فاذا كان ما بين المكانين صحراء لا مساكن فيها يحمل فيها الزاد والمزاد فهو مسافر وان وجد الزاد والمزاد بالمكان الذي يقصده ؛

وكان عثمان جعل حكم المكان الذي يقصده حكم طريقه فلا بد ان يعدم فيه الزاد والمزاد وخالفه اكثر علماء الصحابة وقولهم ارجح فان النبي ﷺ قصر بمكة عام فتح مكة وفيها الزاد والمزاد واذا كانت مني قرية فيها زاد ومزاد فبينها وبين مكة صحراء يكون مسافرا من يقطعها كما كان بين مكة وغيرها ولكن عثمان قد تأول في قصر النبي ﷺ بمكة انه كان خائفا لانه لما فتح مكة [illegible] ان هوازن جمعت له وعثمان يجوز القصر لمن كان [illegible] كما يحكى عن عثمان انه يعني النبي ﷺ انما امرهم بالمتعة لانهم كانوا خائفين وخالفه علي وعمران بن حصين وابن عمر وابن عباس وغيرهم من الصحابة وقولهم هو الراجح فان النبي ﷺ في حجة الوادع كان آمنا لا يخاف الا الله وقد أمر اصحابه بفسخ الحج الى العمرة والقصر وقصر العدد انما هو معلق بالسفر ولكن اذا اجتمع الخوف والسفر ابيح قصر العدد وقصر الركعات وقد قال النبي ﷺ هو وعمر بعده لما صليا بمكة « يا اهل مكة اتموا صلاتكم فانا قوم سفر » يبين أن الواجب لصلاتهم ركعتين بمجرد كونهم سفرا فهذا الحكم تعلق بالسفر ولم يعلقه بالخوف

فعلم ان قصر العدد لا يشترط فيه خوف بحال وكلام الصحابة او

اكثرهم من هذا الباب يدل على انهم لم يجعلوا السفر قطع مسافة محدودة او زمان محدود يشترط فيه جميع الناس بل كانوا يجيبون بحسب حال السائل فمن رأوه مسافراً اثبتوا له حكم السفر والا فلا

ولهذا اختلف كلامهم في مقدار الزمان والمكان فروى وكيع عن الثوري عن منصور بن المعتمر عن مجاهد عن ابن عباس قال اذا سافرت يوما الى العشاء فان زدت فقصر ورواه الحجاج بن منهال ثنا ابو عوانة عن منصور بن المعتمر عن مجاهد عن ابن عباس قال لا يقصر المسافر في مسيرة يوم الى العتمة الا في اكثر من ذلك وروى وكيع عن شعبة عن شبيل عن أبي جمرة الضبعي قال قلت لابن عباس اقصر الى الابلة ؟ قال تذهب وتجيء في يوم ؟ قلت نعم قال لا الا يوم متاح . فهنا قد نهى ان يقصر اذا رجع من يومه [illegible] واذن في يوم وفي الاول نهاه ان يقصر الا في اكثر من يوم وقد روي نحو الاول عن عكرمة مولاه قال اذا خرجت من عند اهلك فاقصر فاذا أتيت أهلك فأتم وعن الاوزاعي لا اقصر الا في يوم تام وروى وكيع عن هشام بن ربيعة بن الغاز الجرشي عن عطاء بن ابي رباح قلت لابن عباس اقصر الى عرفة ؟ قال لا ولكن الى الطائف وعسفان فذلك ثمانية واربعون ميلا وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء قلت لابن عباس اقصر الى منى او عرفة ؟ قال لا ولكن الى الطائف او جدة او عسفان فاذا وردت على ماشية لك أو اهل فأتم الصلاة وهذا الاثر قد اعتمده احمد والشافعي . قال ابن حزم من عسفان الى مكة بئير الخلفاء الراشدين اثنان وثلاثون ميلا قال واخبرنا الثقاة ان من جدة الى مكة اربعين ميلا (قلت) تبه من

القصر الى منى وعرفة قد يكون لمن يقصد ذلك لحاجة ويرجع من يومه الى مكة حتى يوافق ذلك ما تقدم من الروايات عنه ويؤيد ذلك ان ابن عباس لا يخفى عليه ان اهل مكة كانوا يقصرون خلف النبي ﷺ وابي بكر وعمر في الحج اذا خرجوا الى عرفة ومزدلفة ومنى وابن عباس من اعلم الناس بالسنة فلا يخفى عليه مثل ذلك واصحابه المكيون كانوا يقصرون في الحج الى عرفة ومزدلفة كطاوس وغيره وابن عيينة نفسه الذي روى هذا الاثر عن ابن عباس كان يقصر الى عرفة في الحج وكان اصحاب ابن عباس كطاوس يقول احدهم أترى الناس يعني أهل مكة صلوا في الموسم خلاف صلاة رسول الله ﷺ وهذه حجة قاطعة فانه من المعلوم ان اهل مكة لما حجوا معه كانوا خلقا كثيرا وقد خرجوا معه الى منى يصلون خلفه وانما صلى بالمسلمين قصرا والناس كلهم يصلون خلفه اهل مكة وسائر المسلمين لم يأمر احدا منهم ان يتم صلاته ولم ينقل ذلك احد لا باسناد صحيح ولا ضعيف ثم ابو بكر وعمر بعده كانا يصليان في الموسم باهل مكة وغيرهم كذلك ولا يأمران احدا باتمام مع انه قد صح عن عمر بن الخطاب انه لما صلى بمكة قال يا أهل مكة اتموا صلاتكم فانا قوم سفر وهذا ايضا مروي عن النبي ﷺ في اهل مكة عام الفتح لا في حجة الوداع فانه في حجة الوداع لم يكن يصلي بمكة بل كان يصلي بمنزله وقد رواه ابو داود وغيره وفي اسناده مقال

والمقصود ان من تدبر صلاة النبي ﷺ بعرفة ومزدلفة ومنى باهل مكة وغيرهم وانه لم ينقل مسلم قط عنه أنه امرهم باتمام علم قطعا انهم كانوا يقصرون خلفه وهذا من العلم العام الذي لا يخفى على ابن عباس ولا غيره

ولهذا لم يعلم احد من الصحابة امر اهل مكة ان يتموا خلف الامام اذا صلى ركعتين فدل هذا على ان ابن عباس انما اجاب به من سأله اذا سافر الى منى او عرفة سفرا لا ينزل فيه بمنى وعرفة بل يرجع من يومه فهذا لا يقصر عنده لانه قد بين ان من ذهب ورجع من يومه لا يقصر وانما يقصر من سافر يوما ولم يقل مسيرة يوم بل اعتبر أن يكون السفر يوما وقد استفاض عنه جواز القصر الى عسفان وقد ذكر ابن حزم أنها اثنان وثلاثون ميلا وغيره يقول اربعة برد ثمانية واربعون ميلا والذين حدوها ثمانية واربعين ميلا عمدتهم قول ابن عباس وابن عمر وأكثر الروايات عنهم تخالف ذلك فلو لم يكن الا قولهما لم يجز ان يأخذ ببعض قولهما دون بعض بل اما ان يجمع بينهما واما ان يرجح احدهما بدليل آخر كيف والآثار عن الصحابة أنواع اخر ولهذا كان المحددون بستة عشر فرسخا من اصحاب مالك والشافعي واحمد انما لهم طريقان بعضهم يقول لم اجد احدا قال باقل من القصر فيما دون هذا فيكون هذا اجماعا وهذه طريقة الشافعي وهذا ايضا منقول عن الليث بن سعد فهذان الامامان بينا عذرهما انهما لم يعلما من قال بأقل من ذلك وغيرهما قد علم من قال بأقل من ذلك

(الكلام بقية)

الاصلاح الاسلامي في المغرب الاقصى

﴿ نظرة في كتاب حقيقة الاسلام وأصول الحكم ﴾

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية سابقاً (*)

(٣)

وفي صفحة ١٦ « وكان أبو موسى الاشعري يتجافى عن أكل الدجاج لأنه لم يعهدها العرب قبلنا يومئذ الخ » نقول و كذلك كان ﷺ يتجافى عن أكل المباح الذي لم يتعوده كما في قصة الضب الخ . ففي الموطأ عن خالد بن الوليد أنه دخل مع رسول الله ﷺ بيت ميمونة زوج النبي ﷺ فأتي بضب محنوذ فأهوى اليه رسول الله ﷺ بيده ، فقال بعض النسوة اللاتي في بيت ميمونة : أخبروا رسول الله ﷺ بما يريد أن يأكل منه ، فقيل هو ضب يا رسول الله فرفع يده فقلت أحرام هو يا رسول الله ؟ فقال « لا ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه » قال خالد : فاجتررته فأكلته ورسول الله ﷺ ينظر . فانظر إلى هذه الوطنية (١) الصادقة حيث يقول ﷺ « لم يكن بأرض قومي » وإلى امتناع أبي موسى الاشعري عن أكل الدجاج لأنه لم يعهدها العرب الخ

ومن الغريب أن يتجافى الرسول وأصحابه عن أكل طعام مباح لعدم اعتياده فقط بينما نرى كثيراً من المسلمين وبعض فقهائهم وزعمائهم يتساقطون على قصاع الخنزير ومأكولات الافرنج ، ويتغالون في شراء علب المربيات والسمك والضفادع والحشرات رغماً عما يرد يوميا في الكتب والمجلات الطبية من النهي عن أكلها والتحذير من قربانها لتعفنها من جهة ولغشها بخلطها بمواد أخرى الله أعلم من أين يؤتى بها .

وفي صفحة ١٦ « فانظر تجد أن النكبة انما جاءت على المسلمين من مخالفتهم ما تقتضيه الخلافة الخ » نقول وعليه فيجب على جميع العلماء في العالم الاسلامي

(*) لصاحب الامضاء الرمزي (١) عيافة النفس طبيعية لا وطنية

السعي العظيم لارجاع الخلافة وبذل أعظم المجهودات لجمع مؤتمر الخلافة ثانيا وتنظيمه لانتخاب الخليفة ومحاربة الملك الطبيعي أين وجد

وفي صفحة ٤٨ « وحكم مثل هذا الاجماع أن يكون المجمع عليه عقيدة ويكون منكره كافراً[1] الخ » نقول إن ذلك صار عقيدة راسخة عند المسلمين اهتم العلماء بها وبحثوها في مؤلفاتهم الدينية في الحديث والاصول والكلام وأودعوها حتى في التآليف التعليمية والاراجيز الابتدائية التي تؤلف للمبتدئين قديماً وحديثاً لتنشئتهم على العلم بأنها من المعتقدات الدينية قال في الجوهرة :

واجب نصب امام عدل بالشرع فاعلم لا بحكم العقل

فلى متى يعتقد من هذا لاسم المتخرج من الازهر الذي يحارب الدين بالبهتان والسفسطة (إن شر الدواب عند الله الصم البكم)

وفي صفحة ٦٥ « وإن لم يكن إلا ما كان في القرآن من سياسة وإلا ما في كتب الفقه من سياسة والقسم الاعظم من الاحكام ... الخ » نزيد على ذلك أن كتب الحديث الستة والموطأ قد استقصت أكثر الاحكام السياسية الشرعية المدنية والجنائية ، ففي صحيح البخاري ما يناهز ٤٠٠٠ ترجمة بعضها في العبادات الايمان والتوحيد والطهارة — والصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأكثرها في الاحكام السياسية الشرعية المدنية والجنائية

ففي كتاب العلم نحو ٥٥ ترجمة ، وفي كتاب الزكاة نحو ٨٠ ترجمة ، وفي كتاب البيوع وما شاكلها كالصرف والمرابحة والسلم والشفعة والاجارة وأجور العملة ، والسماسرة ، وأهل الحرف اليدوية وشبهها ، والكراء ، والجعل والحوالات نحو ١٧٠ ترجمة

وفي المعاملات وما ألحق بها كالوكالة والشركة والمزارعة والمساقاة ، والقرض والقراض ، وأداء الديون ، والحجر ، والتفليس ، والخصومات ، والصلح ، والاصلاح ، والرهن ، والضمان ، والاقرار ، والاستلحاق ، والوديعة ، والعارية والغصب ، والاستحقاق ، والمظالم ، والكتابة ، والعتق ، والهبة ، والشهادات ، والشروط أي التوثيق نحو ٣٩٠ ترجمة ، وفي كتاب الوصايا والاوقاف نحو ٤٠

(١) هذا الاطلاق ممنوع وفي المسألة تفصيل

ترجمة ، وفي كتاب النكاح والطلاق والنفقات نحو ١٩٥ ترجمة ، وفي كتاب الاطعمة والاشربة والذبائح والصيد نحو ١٣٠ ترجمة ، وفي كتاب المرضى والطب نحو ٨٠ ترجمة ، وفي كتاب اللباس نحو ١٠٠ ترجمة ، وفي كتاب الآداب العامة كصلة الرحم والاستئذان ، وآداب الزيارة والضيافة ، والصحبة والمعاشرة ، وحفظ السر وافشاء السلام ، والتوادد و لايثار على النفس ، والتواصي بالصبر والمرحمة نحو ١٨٠ ترجمة ، وفي كتاب الجهاد وأحكامه نحو ٢٤٠ ترجمة ، وفي كتاب النكاح الخ وفي كتاب الحدود والديات والعفو عنها نحو ٩٥ ترجمة ، وفي كتاب الحيل والخداع في البيوع والمعاملات نحو ١٥ ترجمة ، وفي كتاب الاحكام والخلافة والاستخلاف نحو ٥٥ ترجمة

(هذه نبذة مما اشتمل عليه صحيح البخاري رحمه الله)

وقد اشتمل كتاب الموطأ على أزيد من [illegible] ترجمة

وصحيح مسلم على أزيد من ١٠٠٠٠ ترجمة

وسنن الترمذي على مايناهز ٢٠٠٠ ترجمة

وسنن أبي داود على مايناهز ٢٠٠ ترجمة

وسنن النسائي على مايناهز ١٠٠٠ ترجمة

وسنن ابن ماجه على زهاء ٢٠٠ ترجمة

هذه أمهات كتب الحديث الصحيحة المعترف بها المسلمة عند جميع أهل السنة ، أما غيرها من كتب الحديث فلا تحصى ، و كذلك كتب الاصول ومدونات الفقه لاحصر لها ، فهل مع هذا ينادى الملحدون وأذنابهم على اصرارهم وقولهم إن حظ العلوم السياسية عند المسلمين كان سيئا ، وإن وجودها بينهم كان أضعف وجوداً ، وإنهم لم يجدوا المسلمين مؤلفا في السياسة ، ولا يعرفون لهم بحثا في شيء من أنظمة الحكم فماذا بعد الحق إلا الضلال

واذا لم يتفق الماجور علي عبد الرازق هو وأربابه الملحدون أن يطالعوا

مؤلفات الاسلام وأمهات الدين ، ألم يقف على كتاب كشف الظنون وفهارس دار الكتب السلطانية وخزائن الازهر وغيره ، والخزانتين التيمورية والزكية ، واذا كان لم ير شيئاً من ذلك فكيف ساغ له أن يهاجم حصون الاسلام المنيعة وهو خاوي الوفاض من كل شيء ، إلا سلاح الالحاد والقحة (ألا ساء ما يحكمون)

وفي صفحة ١٠٠ « والذي دعا معاوية لايثار ابنه يزيد بالعهد انما هو مراعاة المصلحة الخ » نقول هذا الرأي هو الرأي السديد الذي أنتجه قرائح المفكرين من جهابذة العلماء فيتحتم قبوله واعتقاده[1] ، وأما ما في بعض كتب التاريخ والادب من أن معاوية أغرى بعض قادة الامة ورؤساءها بأن يسألوه في المجلس العمومي أن يوصي بولاية العهد إلى ابنه يزيد كما يقع اليوم بين رؤساء الوزارات وبين أقطاب الاحزاب في أوربا وأميركا في المسائل الهامة كالانتخابات وابرام المعاهدات أو نقضها فذلك كله من الروايات المدخولة [illegible] فقط من خصوم معاوية غير الزبيريين ومن أعداء الامويين كذلك فلا يوثق بها أصلا

فان عمر بن الخطاب رضي الله عنه [illegible] وكان لا يلحق ، وكان يعلم من حال معاوية [illegible] في أدنى شيء ، لما ولاه أعظم قطر وهو الشام بعد موت أخيه يزيد وقد تركه في منصبه بقية حياته أي حياة عمر التي تزيد على أربع سنين

وناهيك بشدة عمر على عماله وما كان يعاملهم به من المراقبة الشديدة ومحاسبتهم على النقير والقطمير وكثرة عزلهم من وظائفهم لأقل سبب ، وقد ولى معاوية مع وجود أساطين الصحابة السابقين للاسلام والمهاجرين من أجله أفلا يكون ذلك منه أعظم تزكية لمعاوية وأعظم شهادة له على حسن سيرته[2] وفي الاستيعاب عن عبدالله بن عمر قال : ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية ، فقيل له : فأبو بكر وعمر وعثمان وعلي فقال : كانوا والله خيراً من معاوية وكان معاوية أسود منهم

(١) لا يتحتم على احد اعتقاد ما انتجت قريحة غيره

(٢) حقق الحافظ بن حجر في شرحه للبخاري ان عمر كان يختار للولاية القادرين عليها ويقدمهم على من هم افضل منهم علماً وديناً وضرب المثل لذلك بتقديم معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة على علماء المهاجرين وصلحائهم

وفي صفحة ١١٤ « وأن عصر النبي لم يخل أصلا من مخايل الملك الخ » نقول إن المخايل التي عناها الشيخ بحيث وسطرها لم يخل منها عصر النبوة نعم إنه خلا من المخايل التي يريدها أهل الغطرسة من بناء القصور الشامخة واشتمالها على الفرش الوثيرة ، والرياش الثمين ، والاواني الفضية المزخرفة التي يظنها صغار الاحلام هي عنوان الملك

وقد خلا عصر النبوة أيضا من كثرة الخدم والحجاب ، والأعوان الظلمة بالباب ، وحيلولتهم بين الراعي والرعية ، ومنعهم المتظلمين من رفع ظلاماتهم للملك وخلا أيضا من اشتغالهم بسفاسف الامور ومصاريف دار الملك التي تأخذ أكبر قسط من الميزانية على عاتق الرعية ، ومن اشتغالهم بغصب أرزاق الناس من اللحوم والفواكه وأطايب الاطعمة بلا ود ولا حساب

خلا أيضا من الشرطة حملة الرماح والسيوف والبنادق أمام الملك لارهاب الرعية وتعويدها على الملق والمسكنة أمام الولاة الجائرين مما لم يعهد في عصره ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين فذلك وما أشبهه من العادات الكسروية التي جاء عليه السلام لمحاربتها والقضاء عليها قد خلا منه عصر النبي ﷺ وطهره الله من أوجاسه وهناته وقد صدق الشيخ علي عبد الرازق في هذه فقط وقد يصدق الكذوب

الملاحدة بين أمرين :

فظهر مما تقدم أن الملاحدة واقعون بين أمرين

(أحدهما) أن يكونوا عارفين حقيقة الاسلام وما أتى به من المنافع الدنيوية والاخروية وأنه صالح لكل زمان ومكان وأنه دين الفطرة الذي تنشده الانسانية وتصبو اليه

إلا أن ماجاء به من بعض التكاليف الخفيفة التي تربي الناس على الثبات والشجاعة وما أوجبه من ترك المنكرات التي تخدش وجه الهيئة الاجتماعية قد ثقل حمله على عاتقهم وجبنوا عن معاناته فحملهم ذلك على الانسلاخ منه والانحلال ، والفرار من اداء الواجبات القليلة في مقابلة مامنحهم من الحقوق العامة ، والحرية الطاهرة النظيفة

فالتكاليف الجديدة مثل الطهارة التي لا يغيب من أحد ما لها من المزايا العظيمة وأهمها المحافظة على الصحة التي هي رأس مال الحياة

(٢) ومثل الصلاة التي أخبر سبحانه أنها شاقة على الملاحدة المبعدين فقال (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) الآية ، ولو لم يكن فيها إلا تعويد الناس على الثبات وضبط الوقت واطراح الكسل الذي هو علة الفشل لكفى

(٣) ومثل الصوم الذي فيه تعويد الناس على الصبر وتذكيرهم بما يكابده الفقراء من آلام الجوع عند اشتداد الازمات خصوصا عند انحباس الامطار وفي أوقات البرد الشديد التي يحتاج الناس فيها للأكل أكثر من أيام الحر فالجوع الصائم يحمله على رحمة الضعفاء واعانتهم على مكاره الحياة ويفتح قلبه لولوج نسمات الرحمة والرأفة بالمحتاجين

(٤) أما الزكاة فقد حمدها عقلاء الأوربيين وفلاسفتهم حتى قال لي أحدهم لو كانت مشروعة عندهم لما حدثت الاشتراكية والشيوعية أبداً ولما وقعوا في مصائب الاعتصابات الحالية

ولو أخرجت كما يجب لما بقي فقير في العالم من فقراء المسلمين ولا تعدم الحقد والحسد أو خفت وطأتهما على الاقل

(٥) وأما الحج ففوائده بارزة تكاد تلمس باليد فالاسفار عند الافرنجيين لاتنقطع صيفاً وشتاء وهي التي أكسبتهم ماهم فيه من الرخاء ، وبسطة العيش زيادة على مايكتسبه المسافر من الارباح ان كان تاجراً والعلوم ان كان مفكراً وباحثا وزيادة على ما ينعم به من الصحة التامة والنزهة البهجة

هذه بعض فوائد التكاليف الاسلامية التي عمي الملحدون عن ادراكها وعجزوا عن احمالها لضعفهم وجبنهم وقد عد الغزالي كثيرا من أسرارها في كتابه الاحياء

محاضرة مستر كراين

عن جزيرة العرب — أو — الحجاز واليمن

في جمعية الرابطة الشرقية

(٢)

مدينة سواكن

زرت بعض الموانئ الواقعة على الشاطئ الغربي من البحر الاحمر وكان القصد من هذه الزيارة مشاهدة مدينة (سواكن) القديمة التي اعتاد الحجاج أن يأتوا اليها من قلب افريقية ليبحروا منها الى مكة وكانت قديماً بلدة تجارية عظيمة ولكنها اليوم خالية خاوية . ولا تمر بعض السنين عليها حتى تنعق فيها البوم والغربان ، وذلك بسبب مزاحمة بور سودان ومصوع لها ، ويوجد في ضاحيتها قريتان من القش والخشب سكانهما من الحجاج الذين انقطعوا في الطريق ولم يصلوا لا الى مكة ولا الى بلادهم وكانت علامات الفقر والشقاء بادية عليهم فلا زراعة ولا صناعة لهم ولاهم يتقنون كاهل الساحل صيد الاسماك .

﴿ الكلام على اليمن ﴾

من الحديدة إلى صنعاء

ذهبت من مصوع الى الحديدة ميناء صنعاء وقد أعد لي الامام جميع أسباب الراحة واستقبلني حاكم الحديدة أحسن استقبال . وهذه البلاد اليمانية الاسلامية العجيبة منزوية عن العالم أكثر من القطب الشمالي ولايزال طراز الحياة فيها كما كان عليه قبل مئات السنين ولكنه يختلف كثيراً عنه في نجد .

لوجود جبال عالية بين صنعاء والحديدة ركبنا في رحلتنا البغال لان البغال تسلك حيث لا تسلك الخيل ولا الجمال . وبعد ما انقضى على سفرنا من الحديدة يومان ابتدأنا نشاهد هندسة البناء في اليمن تختلف اختلافا كليا عن هندسة البناء

في الحجاز وقد شاهدنا في طريقنا حقول شجر البن في بطون الجبال والوديان . إن هندسة البناء في جدة ومكة والمدينة متقنة وجميلة ، وتدل نوافذها الكثيرة الواسعة وأبوابها الكبيرة التي تفتح وتغلق بسهولة على حب القوم للضيافة ، وعلى عراقتهم في المدنية وميلهم إلى ضبط الامن ، بعكس اليمن التي تدل عزلة قراها وانفرادها في الاماكن العالية الوعرة التي لا يصل الانسان اليها إلا بصعوبة على خوف اليمانيين من غزو بعضهم بعضا وعلى عدم استتباب الامن[1] وتشبه ابنية هذه القرى القلاع الحصينة والدور الأول منها مخصص للحيوانات والدور الثاني للحبوب والذخيرة ولا يوجد في هذين الدورين منافذ للنور ولا الهواء ، وأما الادوار الباقية وهي عادة اثنان فما فوق فتخصص للسكن ونوافذها صغيرة جداً لا يكاد يدخل منها الهواء ، ولا النور وجميع هذه الاعمال تدل أن تلك الابنية بنيت على هذا الشكل قصد الدفاع عن النفس .

ومن المعلوم أن القطرين اليمن والحجاز يختلف بعضهما عن بعض اختلافا عظيما ففي الحجاز سهول واسعة وصحار مقفرة وأما اليمن فقنة الجبال المرتفعة والوديان المنخفضة[2] وتختلف الحياة الاجتماعية فيهما اختلافا عظيما فالحجاز المقدس بنظر المسلمين تأتيه الحجاج من جميع أطراف المعمورة لقضاء مناسك الحج ولذلك ترى أهل الحجاز مضطرين بحكم الضرورة الى ضمان راحة الملايين من المسلمين بعكس البلاد اليمانية التي كانت ومازالت مغلقة في وجه جميع سكان الارض وقلما يأتيها الزوار أو السياح وأهلها يخشى بعضهم من بعض ويخشون الدسائس التي يدسها لهم جيرانهم فلذلك تراهم معادين شظف العيش ومعتصمين بالقلاع في رؤس الجبال .

على أن الامام أعد لي جميع وسائل السفر وكنت أينما حللت بالمساء أجد غرفة معدة لنزولي بها ولكنني اضطررت أحيانا الى النزول في بعض الخانات القديمة الواقعة على طريق القوافل بين عدن والقدس . ولهذه الخانات أبواب ولكن

(١) المنار: إنما كان أكثر خوف أهل اليمن من الترك الذين ظلوا يغزونهم اربع قرون

(٢) في الحجاز من الجبال والوديان مثل ما في اليمن وإنما الفرق بين القطرين ان اليمن قطر كثير النبات والشجر خلاف الحجاز

لانوافذ لها وفيها ممر طويل وغرفة واسعة خصص قسم منها بالحيوانات والقسم الآخر بالعائلة صاحبة الخان ويديهي أن كثيراً من الاولاد يولدن في هذه الخانات وقد خطر لي عند ما رأيتها أن المسيح وله في مزود خان كهذه الخانات .

إن المناظر الطبيعية بين الحديدة وصنعاء جميلة للغاية وقد مررنا بطرقات تعلو تسعة آلاف قدم عن سطح البحر ونزلنا في وديان عميقة حارة وقد وصلنا الى صنعاء في الليل على حين غرة ولما كانت الشوارع لا انضاء بالأنوار وصلنا الى الدار المعدة لسكنانا بصعوبة شديدة على ما كان من معونة أنوار الجند لنا . وأما الدار التي نزلنا بها فهي مؤلفة من دورين مبنيين بناء حديثا جيداً وفيها حديقة تبلغ مساحتها أكثر من فدان أرض وقيل لنا إن هذه الدار بيعت منذ بضعة أشهر بمبلغ (١٥٠) ريال أميركي أي ثلاثين جنيها مصريا . وقد أخبرنا بعض الجنود الذين رافقونا في الطريق أن الجندي منهم يتناول [illegible] ريالين ونصف أميركيين في الشهر ويتناول ثلاثة أرغفة من الخبز [illegible] ولا يأكل الجند تقريبا غير الخبز ولكن [illegible] بعض [illegible] ويشترون شيئا من اللحم ويطبخونه لاتقسم [illegible] العجاب أن يرى الانسان هذه الجنود رغم تناولها المقادير القليلة من الغذاء تحمل البنادق الثقيلة وتتمنطق بالعتاد الكثير وتركض على أرجلها مسافات شاسعة غير مبالية بالتعب أو شاعرة بالجوع .

زارنا ذات يوم أحد أمناء سر الامام المدعو محمد راغب بك وهو تركي الاصل ولد في القسطنطينية وترعرع في ضواحي البوسفور قرب المدارس الاميركية التي لي بها علاقات منذ زمن بعيد وقد حدثني عنها حديثا طويلا ومما قاله إن بعض أقربائه درسوا فيها وهذا كان لحسن حظي إذ أدخلني الى حالة الوئام مع حضرة الامام وكان باستطاعته أن يتوسط بيننا بطريق حكيمة .

وفي اليوم الثاني قابلنا الامام على انفراد في غاية الحفاوة والاكرام فقال لي إنه يؤذن لي أن أذهب حيث شئت بتمام الحرية وأن آخذ رسم ما أريد أيا كان ماعدا رسم شخصه . وأنه لم يسمح لأحد غيري قدر ما سمح لي من الحرية في صنعاء .

إن الامام في أوائل العقد الخامس من عمره قوي البنية نشيط الحركة ولما كانت ولاية حكمه ضيقة الرقعة كان شديد الرغبة في أن يتولى ادارة شؤونها كلها بيده من جليلها الى حقيرها ، فهو يجلس كل صباح في مجلس يقصده فيه من يشاء ليسأل ما يشاء ، ويعرض مطالبه من أنواع الشكاوي والدعاوي . وعلاوة على ذلك فانه يذهب يوميا الى أحد الاماكن العامة دون حارس ولا تابع من الجند فيصرف فيه نحو ساعة وقد يكون منفرداً تحت أشعة الشمس ولا يرافقه إلا رجل بمظلة الشمسية حيث يستمع الدعاوي وينظر في المعروضات المرفوعة اليه فهو بذلك جامع في شخصه بين مقامي السلطان والخليفة معا مستمداً قوة نفوذه من أصالة الامام على الصحيح الخلافة .

وأما ساعة ذهابه الى المسجد يوم الجمعة فهي ساعة خطيرة الشأن جلالا وبهاء يشترك في اقامة معالمها الناس أجمعون ، لانه يوم المهرجان كل أسبوع . وعندما يمر راكبا في العربة [illegible] أحد الشعب يقف المركبة ليتقبل أي معروض أو يعنى بأي أمر يرى الناس فيه على أتم استعداد لقبوله والخضوع له .

وفي المملكة اليمانية جيش نظامي وجند من المتطوعة وكثيراً ما يشتركان بالانشاد العسكري يصدحان فيه بأصوات خشنة وهو يتضمن أبياتا يرغمون بها ما أعطوا من قوة وحماسة ويقال انها أنشودة قديمة العهد :

ثم إن الامام وإن أبدى لي حين مقابلته مزيد المجاملة وأباح لي الحديث على غاية الاخلاص — لم ير من الحكمة أن يظهر فرط العناية بي أمام الجمهور ، إذ كان من الضروري له أن يحتفظ بمقام الاستقلال العظيم بل بشيء من الاستخفاف بالاجانب مراعاة القبائل الحربية المتعصبين في الحدود الشرقية من البلاد . فان سلطانه وأحكامه نافذة في مملكته نظير ابن السعود لحيثها عن طريق الدين وعليها مسحة من الشدة فيه كأنه يتخذ في السلطة نوع الحكم المتحد المزدوج . لانه مع كونه زيدي المذهب شخصيا ومدار أحكامه على هذه القاعدة ، فان ثلث

شعبه [1] على جانب البحر الاحمر من أهل السنة ومنهم عدد ممن يشغل بعض المقامات الصغرى في حكومته .

الضرائب

أهل اليمن من ذوي الفقر والبؤس الشديد ، ولكنهم لانزوائهم في بقعتهم وانحباسهم عن العالم الخارجي لايشعرون بهذه الحال . وإن المرء ليأخذه العجب كيف يستطاع في هذه الفاقة أن تفرض الضرائب على اليمنيين وتجبى الى الحد المؤذن بإقامة حكومة ولا سيما في تجهيز جيش في تلك المملكة كبير . ذلك لاريب عائد الى حذق من الامام فريد . والظاهر أن معظم واردات الحكومة هو من ضريبة العشر المفروضة على الحاصلات في عامة أنواعها ، على أن الناس باحوا لي أن العشر قد يرتقي بعصرهم والتضييق عليهم الى الربع ا وانهم لذلك متألمون ناقمون

المباني

قل أن ترى في [illegible] من ستين الطباق (أو الادوار) وأما البناء فعلى درجة عظيمة من [illegible] على حسن الذوق سواء أكان في هيئة البناء أو [illegible] في ملابس الناس وقنائهم . وإنما يستثنى من ذلك بناء الجوامع . فان منها عدداً يبدو فيه شيء من الجمال النسبي على ما فيه من بساطة الهندسة والرسم خلافاً لبناء المنازل . وبعض تلك الجوامع يرجع تاريخ تشييدها الى عدة قرون وقد ظننت لاول الامر ان البنائين أتوا من القسطنطينية لهندستها وبنائها، ولكنهم أكدوا لي أن كلا الامرين من صنع أهل البلاد أنفسهم

ترقي الى الناس

لم يكد يستقر بي المقام في صنعاء حتى بادر الى زيارتي الجم الغفير من أهلها . وكلما أردت أن ادرس وجهاً من وجوه حياة اليمن كان أمري ينتشر بين الطبقات فكان يوافيني واحد أو جماعة من أهل ذلك الشأن : فقابلت الرؤساء البنائين

(١) المنار : كذا في نسخة الترجمة التي أخذناها من الرابطة الشرقية والصواب الاكثرية الساحقة من سكان تلك السواحل شافعيون ويندر وجود الزيدية فيها

والتجار ورجال العسكرية ولا سيما العلماء وفيهم القاضي الكبير الذي يحمل سمة المسلم التاريخي القديم وبلغ بيننا التعارف مبلغه حتى أقبل لزيارتي المرار العديدة . ولقب (القاضي) في اليمن له معنى خاص فانه يطلق عادة على طائفة ممتازة من جميع طلاب العلم كما أن كلمة (شيخ) تستعمل كذلك في الشمال

سبأ وسد مأرب

كنت شديد الرغبة في الرحلة الى سبأ وعلى الخصوص لمشاهدة السد القديم الذي كان مصدر خصبها وزهوها . ان مؤسس هذه المدينة هو (عبد شمس) الذي ابتدع عبادة البعل أو الشمس ثم أضاف اليها القمر وخمسة كواكب سيارة أخرى فتم بذلك عددها أي السيارات السبع فكان هذا العدد أصل تلك المدينة (سبأ) وقد بنى أيضاً سداً عظيما بين جبلين بحيث ينشأ بحران من الماء يحيي المدينة وماحولها من الارجاء ويهب لها الخصب والنماء

ثم بعد ١٥٠٠ عام تصدعت جوانب السد فطغى الماء على المدينة وماجاورها من البلاد ودمر كثيراً من القرى و [illegible] الحديث (الطوفان)

وأما الامام فهو [illegible] الا انه قال لي في شأن هذه الامنية إن هذه الرحلة من المستحيلات ومع أن سبأ لاتبعد عن صنعاء اكثر من ٧٥ ميلا فهو لم يتمكن من الذهاب اليها الا بعد أن اتخذ اشد الاحتياط لما أن قبائل تلك الناحية على أعظم جانب من التعصب «القديم» يعدون ذواتهم حراس الكنز العظيم المقدس الباقي من آثار تلك العاصمة القديمة فلا يأذنون لاجنبي أن تطأها قدمه أو يقترب منها ومما قال لي الامام إن بعثة ألمانية ذهبت للبحث في تلك الناحية قبل الحرب العالمية فلم يبق البدو على أحد من رجالها

حفلة استقبال لرجوع ابن الامام من سفره

لم ينقض على نزولي صنعاء عدة أيام حتى ورد نبأ مجيء ابن الامام وولي عهد امامته بعد يوم واحد . وكان غائبا عنها ثلاث سنين على رأس فرقة من الجند في القسم الشمالي من البلاد أي (صعدة) حيث يتشعب الطريق شعبتين إحداهما تتجه الى مكة والاخرى الى نجد ، فكانت عودته بالطبع حادثة ذات شأن . فخرجت

الى بعد خمسة أميال من المدينة مع اكثر الاهالي ولاسيما الجيش ووقفنا لاستقبال القادم الكريم على احسن مايقال في الاجلال والاحتفال مما يدل على سمو مكانة ذلك الشاب عند عامة الشعب ذلك أن الامام انما يرتقي سدة الامامة والحكم بانتخاب العلماء من شيوخ البلاد في اجتماع خاص . ولما كان ولي عهده في الحكم احد بقيه الاحياء حق له هذا الاحتفاء والاكرام

وبعد قدوم ذلك الامير الخطير بايام زرته فتوسمت فيه مخايل الحزم والعزم ودلائل الجد في الأعمال على شخصية جذابة ولكنها على صورة أضعف من شخصية والده العظيم (الكلام بقية)

نساء العرب السياسيات

مقتبس من كتاب سيرة السيدة (خديجة أم المؤمنين)(*)

للشهيد الشيخ السيد عبد الحميد الزهراوي (رحمه الله تعالى)

ولقد كان [illegible] السياسة والامور العمومية وناهيك [illegible] من اربعين سنة بين بني ذبيان وبني عبس لم يتفكر في اطفاء نارها الا امرأة ولم تتمكن من اطفائها الا بما لها من المكانة وحسن الرأي وذلك ان بهيسة بنت أوس ابن حارثة بن لأم الطائي لما زوجها ابوها من الحارث بن عوف المري وأراد ان يدخل عليها قالت أتتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضاً يعني بني عبس وبني ذبيان — فقال لها ماذا تقولين؟ قالت «اخرج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع الي» فخرج وعرض الامر لخارجة بن سنان فاستحسن ذلك وقاما كلاهما بهذا الامر فمشيا بالصلح ودفعا الديات من أموالهم

(*) هذه السيرة خير ما كتب فقيدنا الشهيد الشاب وابتكاراً وبياناً لفضائل العرب بالتبع لفضائل فضلى امهاتهم بل نساء العالمين مع ابنتها سليلة الرسول ومريم البتول — وهي تطبع المرة الثانية

وحسبك من اشهرهن من العربيات في السياسة منهن اللاتي كن من شيعة الامام علي ايام مناصبة معاوية له كسودة بنت عمارة بن الاشتر الهمدانية، وبكارة الهلالية ، والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية ، وام سنان بنت جشمة بن خرشة المذحجية، وعكرشة بنت الاطرش بن رواحة، ودارمية الحجونية ، وام الخير بنت الحريش بنت سراقة البارقي . واروى بنت الحارث بن عبد المطلب الهاشمية .

وفدت سودة على معاوية بعد موت علي فاستأذنت عليه فأذن لها فلما دخلت عليه سلمت سودة فقال لها كيف انت يا ابنة الاشتر ؟ قالت بخير يا امير المؤمنين . قال لها : آنت القائلة لأخيك[1] ؟

شمّر كفعل أبيك يا ابن عمارة يوم الطعان وملتقى الاقران
وانصر عليا والحسين ورهطه واقصد لهند وابنها بهوان
ان الامام أخا النبي محمد علم الهدى ومنارة الايمان
فقُد الجيوش وسر أمام لوائه قدما بأبيض صارم وسنان

قالت يا امير المؤمنين « مات الرأس ، وبتر الذنب ، فدع عنك تذكار ما قد نسي » فقال «هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى» قالت «صدقت والله يا امير المؤمنين ما كان أخي خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وان صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وبالله اسألك يا امير المؤمنين اعفائي مما استعفيته » قال قد فعلت فقولي حاجتك : فقالت يا امير المؤمنين « انك للناس سيد ، ولأمورهم

(١) اخوة الدين

مقلد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ، ويبسط بسلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسألنا الجليلة ، هذا ابن ارطاة قدم بلادي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولو لا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فإما عزلته فشكرناك ، وإما لا فعرفناك » فقال معاوية « اياي تهددين بقومك ؟ والله لقد هممت ان أردك اليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك » فسكتت ثم قالت :

صلى الاله على روح تضمنه ... قبر فأصبح فيه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا يبغي به ثمنا ... فصار بالحق والايمان مقرونا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : علي بن أبي طالب رحمه الله تعالى : قال ما أرى عليك منعنا ؟ قالت : أتيت ... رجل ولاه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين فوجدته قائما فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف ألك حاجة فأخبرته خبر الرجل فبكى ثم رفع يديه الى السماء فقال « اللهم اني لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك » ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم قد جاءتكم موعظة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين * بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين * وما أنا عليكم بحفيظ) اذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام » قال معاوية : اكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها فقالت « ألي خاصة أم لقومي عامة ؟ » فقال ما انت وغيرك ؟ قالت : هي والله الفحشاء واللؤم ، ان كان عدلا شاملا وإلا

يسعني مايسع قومي . قال اكتبوا لها بحاجتها

ووفدت بكارة الهلالية أيضا على معاوية بعد موت علي فدخلت عليه وكان بحضرته عمرو بن العاص ومروان وسعيد بن العاص فجعلوا يذكرونه بأقوالها التي قالتها في مشايعة علي ومعاداة معاوية فقالت أنا والله قائلة ماقالوا وما خفي عنك مني أكثر : فضحك وقال ليس يمنعنا ذلك من برك

وكتب معاوية الى عامله بالكوفة ان يوفد اليه الزرقاء ابنة عدي بن قيس الهمدانية مع ثقة من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها وان يوسع لها في النفقة فلما وفدت على معاوية قال مرحبا قدمت خير مقدم قدمه وافد كيف حالك ؟ فقالت بخير يا أمير المؤمنين ثم قال لها ألست الراكبة الجمل الاحمر والواقفة بين الصفين تحضين على القتال وتوقدين الحرب فما حملك على ذلك ؟ قالت يا أمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب، ولا يعود ماذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والامر يحدث بعده الامر . قال لها أتحفظين كلامك يومئذ ؟ قالت لا والله لا احفظه قال لكني أحفظه وتلا عليها خطبة من خطبها التي هي في منتهى البلاغة ثم قال لها والله يازرقاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه قالت احسن الله بشارتك وأدام سلامتك ! فمثلك يبشر بخير ويسر جليسه ، قال أو يسرك ذلك ؟ قالت نعم والله ، فقال والله لوفاؤكم له بعد موته ، أعجب من حبكم له في حياته ، اذكري حاجتك فقالت يا أمير المؤمنين آليت على نفسي ان لا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا . ومثلك من أعطى من غير مسألة ، وجاد عن غير طلبة . قال صدقت وأمر لها وللذين جاؤا معها بجوائز

ووفدت عليه أيضا أم سنان بنت جشمة وعكرشة بنت الاطرش ،

ولما حج سأل عن دارمية الحجونية فجيء بها اليه فقال لها بعثت اليك لاسألك علام أحببت عليا وابغضتني ، وواليته وعاديتني ؟ فاستعفته فلم يفعل فقالت له احببت عليا على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالامر ، وطلبتك ما ليس لك بالحق ، وواليت عليا على حبه المساكين ، واعظامه لاهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك في القضاء ، وحكمك بالهوى . ثم قال لها : يا هذه هل رأيت عليا ؟ قالت إي والله قال فكيف رأيته ؟ قالت رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله النعمة التي شغلتك . قال فهل سمعت كلامه ؟ قالت نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدأ الطست . قال صدقت فهل لك من حاجة ؟ قالت نعم تعطيني مائة ناقة حمراء . قال ماذا تصنعين بها ؟ قالت أغذو بألبانها الصغار ، واستحيي بها الكبار ، واكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر ، قال فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن أبي طالب ؟ قالت سبحان الله أو دونه ، فقال أما والله لو كان علي حيا ما أعطاك منها شيئا قالت لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين

وكذلك وفدت عليه أم الخير بنت حريش من الكوفة ووفدت عليه أروى بنت الحارث وجرى لها معه حديث من مثل ما تقدم

فهكذا كان مقام المرأة العربية ، من أخوات سيدتنا القرشية ، وهكذا كان حظهن من الفصاحة والحصافة ، ومبلغهن من المشاركة في الامور العمومية والاخذ بالاسباب ، والمشايعة لبعض الاحزاب ، وما أتينا الا باليسير توطئة لمعرفة مقام السيدة خديجة في قومها

خطبة الأستاذ اسعاف أفندي النشاشيبي

مفتش معارف فلسطين وعضو المجمع العلمي العربي في الشام

ألقيت في دار الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة

العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي بك

ليست دار العربية رمال الدهناء أو هضبات نجد أو الحجاز أو اقليم الشام أو أرض العراق بل دارها كل مكان ينطق بالضاد أهله، ويتلو فيه كتاب محمد (صلوات الله عليه) قراؤه . وأقوى القوم عربية بل العرب العرباء أعرفهم بأدب العربية . فأهل مصر إذاً هم القبيل المقدم في العربية وهم سادات العرب

وليست اللغة العربية يا أيها الراجع من لندن أو من برلين أو من باريس وقد لبث في تلك المدائن [illegible] ليست اللغة العربية بلغة بدوية ، بلغة صحراوية حتى [illegible] وحتى تؤثر عليها غيرها حين جهلتها ، ولكنها لغة سامية (إن كان ثمة سام) قد نشأت من قبل في جنات النعيم عند دجلة ولم تنبت في القفر فتظمأ وتضحى ، وقد جاورت كل ذات مدنية « وإن العلا تعدي » كما قال أبو تمام ، وقد سطر أيوب الصابر بها في ذلك الزمان سفره أو قصيدته (كما قال فولتير في المعجم الفلسفي) وسفر أيوب أجل سفر في التوراة ، وأيوب العربي كهوميرهو من أكبر شعراء العالم

ثم جاءت هذه اللغة مواطن الحجاز (وكم في الهجرات من خيرات) فنشأها الدهر هنا أفضل تنشئة وهذبها خير تهذيب . وإن البيئة التي أخرجت في الدنيا عظيمها هي التي جاءت لغته ولن تكون لغة ذلك العظيم لغة محمد إلا عظيمة . على أن قد تحدث البيئة بعد طيبها وصلاحها فلا تقذف إلا الخبث « والذي خبث لا يخرج إلا نكداً » كما قال الله

ليست العربية بلغة بدوية صحراوية (كما قالوا لك) بل هي اللغة الحضرية كل الحضرية بل هي (إن استكثرت هذا النعت) لغة الآدمية الكاملة الأولى سوف يخلقون هذا الانسان بعد ازمان كما خلف هو قدما الذين هم أدنى منه من جماعة الربابيح الحاكية

ولقد دعا العربية من قبل قرآنها (وهو القرآن هو القرآن) التكتب معجزاته فما وهنت ولا عجزت ولا ضاقت بل اتسعت وهذا الكتاب وهذه آياته وهذه ألفاظ في المصاحف تتكلم وهذه معاني الكتاب، الكتاب العبقري، كتاب الدهر، قد تجسدت وتجسمت وعهدنا بالمعاني معنوية لاتتجسم . فلن تعجز لغة كتب بها الله[1] كتابه من أن يكتب بها البشر

ولقد دعا العربية في الزمان الاول كل علم وكل فن — ولا كتاب علم واحداً عند القوم في ذاك الوقت — فلباها منها خير ندب وخير ظهير ، وشهد الاقوام في برهة من الدهر أكداسا من الكتب مكدسة بل اجبالا . قال غستاف لوبون في فاتحة كتابه مدنية العرب : (إذا بحث الباحث عن آثار العرب في العلم وعما بتدعوه علم ان ليس هناك أمة ضارعتهم نجاءت في الزمن القصير بمثل صنعهم الـكبير)

فلو لم يك عند العربية ما كر من المرونة في اللفظ والاسلوب ما أنفقت هذا الانفاق على علوم أحسنها وشرحها والتعبير الحكيم في الدنيا (يا صاحب) لايقدر أن يعول تصنيفه الا بعون الناس

وقد أغرق التتر ملوانف من تلكم الـكتب في النهر وحرق الاسبان نفائس منها بالنار لكن الباقي (والحمد لله) كثير . وجلت العرب عن أن تجرم إجرام ذينك الجيلين . وكذاب أي كذاب من قال انا حرقنا دار كتب في الاسكندرية . وكيف يقرفنا القارفون بهذا ظلماً وماندب الناس إلى العلم كمثل كتابكم كتاب ، ولا دعا إلى التفكير وحب الدنيا كزعيمكم محمد زعيم

وآوى إلى هذه العربية في آونة كثيرات كل أديب وكل عالم وكل شاعر وكل كاتب فبوأت معانيهم في أكرم مبوأ وألبستها أحسن ثوب وقرتها (وهي المضيافة وهي الـكريمة بنت الكرام) خير قرى فاجتلى الناس من تلكم المعاني السماويات في هذى الحلل العدنيات، حوراً عينا رضوانيات

فاذا لاقيتم في عصور المولدين أو في عصور المتأخرين قبحا في القول يمض الأذن أن تسمعه وتقتحمه العين إما أبصرته

(١) في الاصل إله

وإذا ألفيتم كلاما بهرجا قد وهت أعضاده ونشوه تركيه وفقد ذلك الرواق
وإذا وجدتم شعرا سخيفا قد عمّيت معانيه ، وقد استعجم على تاليه
وإذا سمعتم سجعا غير طبيعي مرتجا زحافا متدحرجا قد لفته العربية
إذا وجدتم ذلك فلا تلومن العربية ولا تنتقصنها، ولوموا أمة ضعفت فضعف قولها، وذلت فذل شعرها، وحارت في دنياها فاستحار كلامها

لاتلوموا العربية ولوموا أمة ركنت إلى الدعة (قبح الله الدعة) ثم قعدت

ليس المروءة أن تبيت منعما وتظل معتكفا على الاقداح
ما للرجال وللتنعم إنما خلقوا ليوم عظيمة وكفاح

« والحركة (كما قالوا) ولود والسكون عاقر » وقد قال أبيقور : أي معنى للكون بالسلم لفقدان الحركة ولام هذا الحكيم (اظلوم والله بتلك التهمة) هومير حين سأل الآلهة أن تصطلح في نزول الحروب

اذا المرء لم يغش الكريهة أوشكت حبال الهوينا بالفتى أن تقطعا

وفريدريك نتشه يرى أن عمل الرجال هو القتال وعمل النساء هو تمريض الجرحى ولا عمل لها غير هذا

وليس القصد يابني أن تغلب أو أن تغلب بل القصد أن تكون حرب ، أن تكون حركة

ألا أيها الباغي البراز تقربن أساقك بالموت الذعاف المقشبا
فما في تساقي الموت في الحرب سبة على شاربيه فاسقني منه واشربا

لاتلوموا العربية ولوموا أمة تعبدها حاكها وتفرعن عليها و « استجار كيدها وعدا مصالحها » كما قال ذلك الشيخ فلم تغضب ولم تمش اليه بالسيف . وقد علم أوائلها التلميذ الثاني لشائد الوحدة العربية طريقة تقويم الملوك

لاتلوموا العربية ولوموا أمة صغرت هممها وتضاءلت عزائمها وتهزعت (تكسرت) أخلاقها (يا أسفي على صوادق الاخلاق يا أسفي على الاخلاق الجيدة) وكان ابن الخطاب يقول لها : « ولا تصغرن هممكم فاني لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم » وكان معاوية كاتب وحي النبي يقول : « ياقوم إن الله قد اختاركم من الناس وصفاكم من الامم كما تصفى الفضة البيضاء من خبثها فصونوا

أخلاقكم ولاتدنسوا أعراضكم فان الحسن منكم أحسن لقربكم منه ، والقبيح منكم أقبح لبعدكم عنه »

لاتلوموا العربيــة ولوموا أمة اجتزأت بالقليل وقنعت من دهرها بالدون وأنامها (قتلها) هذا القول الخبيث الافيوني السكوكي « القناعة كنز لايفنى » وكانت ماترضى قبل من شيء الكثير ، وكانت ماتقبل حالا وسطاء لاشيء أو كل شيء كما يريد لشه

وتحن أناس لاتوسط بيننا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر

* * *

وقالوا : عليك وسبط الامور   فقلت لهم أكره الأوسطا

وكان دستورها في دنياها « القناعة من طباع البهائم » و « عليك بكل أمر فيه مزلقة ومهلكة » وأي محامل الأمور [illegible] وصاحب هذا القول الكريم هو ابن معمر صاحب رسول الله [illegible] ورضوانه)

وقد راع تقهقر هذه الامة وتدهورها حين تقهقرت وتدهورت شاعريها الاكبرين في عهد انحطاطها فأنكرا الحال واستفظعاها وراح ابن الحسين يقول :

أحق عاف بدمعك الهمم   أحدث شيء عهداً بها القدم
وإنما الناس بالملوك وما   تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولاحسب   ولا عهود لهم ولا ذمم
في كل أرض وطئتها أمم   ترعى بعبد كأنها غنم

وقعد رهين المحبسين في كسر بيته :

يكفيك حزناً ذهاب الصالحين معاً   وأننا بعدهم في الارض قطان
ان العراق وإن الشام مذ زمن   صفران مابهما (للعدل) سلطان
ساس الانام شياطين مسلطة   في كل قطر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم   إن بات يشرب خمراً وهو مبطان
متى يقوم (زعيم) يستقيد لنا   فتعرف العدل أجبال وغيطان

صلوا بحيث أردتم فالبلاد أذى كأنها كلها للابل أعطان

فليست اللغة العربية (والحالة في تلكم العصور كما سمعتم عنها) بمتأهلة أن تلام أو أن تعاب فانها لابست ضعفاء فلبست كساء ضعفاء، وعاشرت وضعاء فارتدت شعار ضعة، وما الضعف وما الضعة (والله) من خلائقها

ولو استمرت تلك القوة ولو استمرت تلك المدنية ولو لم يكن ما كتب في اللوح أن يكون لملأت بدائع العربية الدنيا فانها معدن البدائع ومنجم كل عبقري رائع

على أن لغة العلم في العربية (والعلم لغة وللأدب لغة) لم تضم ضيم أختها. وما المقاصد والمواقف وشرحاهما وأقوال ابن الخطيب ومقدمة ابن خلدون (على معرفتها) وكلها في العصور المتأخرة بالتي تذم (في أسلوب اللغة العلمي) جملتها

ويخيل الي أن نفوس الحكماء العلماء تكون في أحايين الضعف أقوى من نفوس الادباء، فلا تهن وهنها، ولا تهون هوانها، أو كأن العلماء في الدنيا، وليسوا في الدنيا ومن الناس وليسوا من الناس، وقد يلاقي هؤلاء القوم المساءة بين ريبهم ولا آثر لحوادث دهرهم فيهم، ولا يتقدمون ميادين الحياة فيتأخرون ولا يتقدمون وكل منهم ينشد متحسراً

وأخرني دهري وقدم معشراً على أنهم لايعلمون وأعلم

يئست من اكتساب الخير لما رأيت الخير وقراً للشرار

وربما لبسوا الثياب للمصارعة فيصرعون، وقد نازل أمس صاحبنا (ولسن) ذينك العفريتين لويد جورج وكلمنصو فعقلاه عقلة في السياسة شغزبية[1] فصرعاه سريعا (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) كما قال الله. وأضحى عند جميع الناس ضحكة ثم قضى كمداً

أين الامم المحررة يا ولسن ؟

ليست العربية يا سادة بالمقصرة ولا العاجزة وليس الضعف وليس العجز وليس القبح من طبائعها

(١) الشغزبية بالراء وبالزاي احتيال المصارع رجله برجل خصمه وصرعه إياه بذلك

وقد كانت تنشد في هذا الدهر الاطول في أرجاء الارض كافة عما بعيدات، ونفوساً سريات أبيات، وتلقاء في أمة عربية وعلاء ، كما تتجلى في الدنيا تم لبها ، وكي تفي، كعادتها إضاءتها ، فلما التفت في أرض مصر مرغبها ، لما وجدت (محمداً ومحموداً) ظهرت بل ائتلقت بل قد تخافر عند ضياها نور الشمس فكان (يوم التجلي) كما يقول اخواننا النصارى وكان عيده . وأصبحت الدنيا وقد علت كلمة العربية وأعلن الدهر سلطانها

وغدا محمود سامي يحمل علم الشعر ويبشر الملأ برسول في القريض يأتي من بعد محمود اسمه (أحمد) ولا تسأل يا هذا قوة سامي الشعرية أن تعطيك أكثر مما أعطتك فحسبك ما أخذت وحسب الرجل ما جاء منه

ولا محمود بعد الا بالمجد

وغدا الشيخ محمد عبده يحمل علم الثورة جمال الدين عند محمد وعند العربية وعند مصر وعند الشرق لانكم

فاذكر في الكتاب جمال الدين

وأثن عليه بالذي هو أهله ولا تكفره فالارح الكافر

إن جمال الدين لم يك شخصا فذاً ، إن جمال الدين كان أمة . والله لم ينبه من أمم الشرق في ذاك الوقت الا أمتان لا ثالثة معهما الاولى هي الامة اليابانية والامة الثانية هي جمال الدين . فجمال الدين أمة وحده

وقد أراد ابن الحريري في البدء أن يقتل الامام فنجاه كتاب الله وحديث رسول الله منه . فرجع يا فتى إلى أسلوب القرون الثلاثة الاولى — إلى الاسلوب الطبيعي العربي — الى الاسلوب الباريسي — إلى أسلوب القرن العشرين بل الثلاثين بل الاربعين ، وابذ ابذ مقامات الحريري ومقامات الهمذاني وما شاكلها ، ولا تتصفحها إلا ابتغيت تعرفها ، إلا خائفا ، وحذار يك أن يستعبدك متقدم في الزمان أو متأخر ، وإياك وأن تقلد في القول أحداً ، فالمقلد عبد ولا يرضى بالعبودية حر ، والعاقل لا يحب كينونته لسواه ، وإن ساواه أو علاه ، وبعضهم لا يحبها الله (عز وجل) والتقليد عدم ، والاستقلال كون ، فلا يؤثر على الثاني الاول الا أحمق

وقد دارت حول الاستاذ الامام « العبارات الفقهية والقرائن العلمية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة من الطبقة » كما يقول ابن خلدون فما استطاعت لبلاغته إضراراً « ولا خدشت لمكنه وجها »

ولا يضر الفقهاء وأهل العلوم تقصيرهم في هذا النمط من البلاغة فالعلم (كما ذكرت آنفاً) لغة وللادب لغة . قال ابن أبي الحديد في شرح النهج : « وقد استعملت في كثير من فصوله فيما يتعلق بكلام المتكلمين والحكماء خاصة ألفاظ القوم مع علمي بأن العربية لا تجيزها » وقال أيضاً : « استهجنا تبديل ألفاظهم وتغيير عباراتهم فمن كلم قوما كلمهم باصطلاحهم ومن دخل ظفار حمر »[1]

وقد كتب الاستاذ في العلم بلغة الادب (كدأب هنري بركسن فيلسوف فرنسة وكفلامريون العالم في الفلك) فراحت رسالته في التوحيد في هذا العصر معجزة .

ظهر محمد والبر محرد فتوت العربية بعد أن أضعفها الخصوم وتعززت بعد إذلال فغدا الدهر [illegible]

ومن سنن القرآن [illegible] وعظيم فيما قدر له أن ينبغ أو يعظم فيه قوله [illegible] في شيء ما إنما هو جوهر أمته ولا يلخص خير الا من خير وما حدث كون من عدم . وقد أشار الى مثل هذا واضع علم الاجتماع ابن خلدون حين ذكر أمر البعثة المقدسة

غدا الدهر بعد لنابغة في القريض يطلع على الدنيا طريقة ، وغدا أهل الدهر يرتقبون شعراً ينسي شعر النبوغ قد عدموه منذ عصور ولم يجيء من بعد القرون الثلاثة الاولى ومن بعد الذي يقول :

وما تنعم الأيام عني بأمرها وما تحسن الايام تكتب ما أملي

الا مقصدات معدودات والا مقطعات قليلات وأبيات نوادر

غدا أهل الدهر يرتقبون شعراً يشع مثل الماس إشعاعا ويزهر كالدراري المتوهجة زهوراً بل يضيء كما تضيء الشمس وقد جمل إل قد تجسم من الجال وقد توجه القرآن فبان بيانا

[1] حمر شديد الميم تكلم بالحميرية وظفار بلد باليمن

غدا أهل الدهر يرتقبون شعراً هو فوق الشعر وكلاما هو فوق الكلام كان ابن نباتة السعدي وقد سمع مثله من شعر احمد بن الحسين فقال : « نحن أن نقول ولكن مثل هذا لا نقول » شعراً متنبياً فوتيا شكسيريا يعلق به الخلود اذا قيل وينشده الدهر الناقد إذ سمعه

انتظرت الامم العربية برهة هذا الشعر النابغ وخروج هذا الشاعر والاقوام كلهم أجمعون متطاولون والاعناق مشرئبة والوجوه الناضرة كما قال الله : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة » والعيون ناظرة شاخصة والقلوب في الصدور راقصة والدهر الذي قد ضن امس وجاد اليوم يبتسم فتبلج (وقد تفتحت أبواب السماء بالدعاء) نور

أحمد



يملأ الدنيا وطلع على اهلها « شوقي »

حتى طلعت ... الحق ... ذاك العثير

فافتن فيك الناظرون ... اليك ... وعين تنظر

يجدون رؤيتك التي فازوا بها من أنعم الله التي لا تكفر

وظهرت معه أمه اللغة العربية آخذة بيمينه وقد انحدرت من مقلتيها دمعتان « ومن السرور بكاء » كما قال المتنبي

جاء (أحمد شوقي) وقد أضاء عصر الكهرباء وخرج هؤلاء العفاريت من الافرنج يسحرون الناس بالذي يأتونه . وإن أعمالهم (والله) لساحرة ، وإن مبتدعاتهم (كقالهم العبقري) عبقرية باهرة ، وأقبلت هذه المدنية الغربية ناسخة المدنيات ، وصاحبة المعجزات المجننات

وماهو الا أن تراها (بدارها) فتبهت لا عرف لديك ولا نكر

مدنية عجيبة مدهشة قد حار في أمرها القائلون فما يقولون ، وقد أعجزت شعراءها فما عادوا يبدعون وقل أو اضمحل فيهم الشعر النابغون ، فلم يبرز شكسبير وغوتي في الغرب ثالث

جاء ذلك وجاء أحمد شوقي فما فر من أمام ما شهد فرار الجبان ، ولا أقحم إقحام العاجز ، بل مشى مشية الليث (كمشي ذلك الحامي) ونادى لغته العربية فأجابته وأهاب بقوته الشعرية فلبته

هما عتادى الكافيان فقد ما أعددته فلينأ عني من نأى

فجاء في الشعر بهذا السحر الذي رأيتموه ، وقال ذلك القول الذي سمعتموه ، وقذف بالشطر بنصف البيت قد اجتافه تاريخ أمة[1]

وسير البيت يعرض فيه للناظرين السامعين دولة

وابتدأ القصيدة في شأن فهاج قبيلا ، أو اهدأ قبيلا أو نشط لما يعلي أو ثبط عما يدني فذهبت تلك القصيدة في الناس دستوراً

وغاص وحلق «وأتي (كما قال ابن الاثير في حق حبيب) بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر »

وعرف الشرق وعرف الغرب وعرف العصر (وقد جهل غيره عصره) واكتنه سر التأخر والتقدم فأحل الحقيقة في الشعر ، وهدى بالكلم الطيب ذي الحكمة الى الطريق الاقوم

فكن كشوقي يا شاعراً في هذا العصر فشيع المجاز بالحقيقة (على أن ليست حقيقة هذا الكون — والله — الا مجازا) واعلم أن علم الاقدمين دينهم ، ودين المعاصرين خاصتهم علمهم و(لكل أجل كتاب) كما قال الله ، وان الدهر دهر حقائق بل لا تثبت الحقيقة فيه الا في دار الاختبار بالشهود العدول ، وان الحال كما قال ذلك الشيخ ذاك الشاك

فلنا للوزير أأنت ليث فشك وقال علي أو كأني

فحلق حين التحليق في طيارة ، وغص عند الغوص في غواصة ، وناج حبيبك بالمسرة اللاسلكية[2] أو (بالراديو) فانهما اسرع من خاطرك

١) إجتافه دخل في جوفه (٢) المسرة بكسر الميم وتشديد الراء آلة المسارة والمراد بها التلفون وقد قلت في آخر قصيدتي الشرقية التي نظمتها وأنا العيد بطرابلس الشام منذ ثلث قرن .

تلي فيطرب من بالضاد ينطق من أرجاء فاس إلى القطر العماني

كأنما أنا أشدو بالمسرة أو أملي على وب سلك كهربائي

ورب معان يهيم بها الزمان هيمة ولا يفصح ، وتختلج في الصدور ولا يبدو ويجهلها العالم وهي منه مقتربة ، وتغيب عن الالمعي وهي لم تبعد عنه ، قد اجتذبتها قوة شوقي الشعرية وبثتها الى التيم العالمين فعجب الناس بل ما كانوا يقضون العجب

وقد حالف قصيد ابي علي[1] الفن محالفة صدق فاتضح اتضاحا وتآخت أبياته تآخيا ، فهي بنو اعيان لا بنو علات ولا اخياف ولا ابناء عم ، وتعانقت معانيه عناق العاشقين ونجلت مقاصده وصرحت صراحة الوطني ذي الاخلاص

وقد جاء وقوام وحلاوة ، عربيته ، متانته ، لغته ، ديباجته ، وان لهذا كا المعنى لقدراً ، وان له لبهجة وان له في النفوس لاثراً . وانما المعنى واللفظ شيء واحد فهما كالجسم والنفس ، والنفس والجسم ، كائن فرد لا كائنان متباينان

واللفظ والمعنى كذة السكون وقرة قلبي هناك مادة قد انفرقت عن القوة ، وليس هناك قوة قد زايلت المادة ، كما يقول (كنت) وغير (كنت) من المثنويين أو الاثنيين (les dualistes)

عدتم [illegible] في الهوات

ليس ثمة [illegible] الوحدة ، كما يقول محيي الدين وسبنوزة وارنست هيكل

اذا تبدى حبيبي بأي عين أراه
بعينه أم بعيني[2] فما يراه سواه

بل ليس هذان المعدودان اثنين (أي اللفظ والمعنى) الا صاحبهما يتجلى فيهما ومن أجل ذلك يضعف قول أو يقوى ، ويقبح أو يجمل ، ويصغر أو يكبر ، ويلتبس أو يتضح . وان أقوال الامم العربية في كل عصر تنبئك بأحوالها فاحوالها الضعيفة ذات الضعف وذات القوة هي في اقوالها فاعرف أقوالها تعرف احوالها

وإذا لم يتجل ذو القول في قوله فليس بذي كيان وانه لسواء والعدم وما قوله قولا .

واذا تشاكس ذات مرة لفظ قول ومعناه فاعلم الاخلوق شاذ نعوذ بالله من مرآه .

---

(١) المنار : هو احمد شوقي نفسه (٢) الرواية التي نحفظها « : لا بعين » وهي التي تطابق « فما يراه سواه » وان كانت العين واحدة على مذهب الوحدة

وإني أقسم بالقرآن وبلاغته وإعجازه وعبقريته وعجائبه التي لن تحصى أن لولم يكرم لفظ شوقي في الشعر كاكرم معناه ولو لم تشرق هذه الديباجة الشوقية المليحة ذات المذاق ذلك الاشراق ما كان احمد شوقي شاعر العربية الاكبر وما كان ملك الشعر وما كنتم اقترعتم بهذا اليوم ولكنه عاقل حكيم عرف كيف يقول وكيف يبني قصيده ويشيد أهرامه بخلافيها ، وقد قدمت قدماءه ما بقي المعاني من الدثور الاثانة لفاظها وما خدمها المعزو الانحقيق كلامها ، والدهر أثبت ما كنت قد قلته

وما التجدد بقوم يصد صاحبه عن الاحتفال في اللغة الادبية بديباجة القول وإحكامه وصيانته من كل خلل ، وتحليه أيضا ذا نضارة لايعاب بها ، بل التجدد يحدو على ذلك لان التجدد اخو التقدم وخصيم التأخر

ومن التجدد أن تهيم بالفن وهذا فن

ومن التجدد أن تقول القول الجيد المضبوط ليفهم الناس ما تقول

ومن التجدد أن تختار ... من الاشياء ... فتسير فيها مستقلا لتبلغ وتبلغ قومك من الارتقاء ...

ومن التجدد أن تشيد الامة المدنية بناءها على الاساس القوي لئلا ينهار

ومن التجدد أن تتقن يا هذا ما تعمل وترصن ما تخط وأن تعد لكل أمر عدته وللكتابة والشعر عدد ، فقل لي هل أعددتها !

ومن التجدد أن يعلم أنه لايجيء من الضعف والانحطاط الا الضعف والانحطاط ولايجيء من القوة والتقدم الا القوة والتقدم ، والمتجدد الاريب انما يريد أن يزداد قوة وتقدما

ومن التجدد أن يعرف من يروم تغييرا كيف يغير فلا يدع الحسن المجمع على حسنه . الى قبيح لاريب في قبحه

ولقد أبهج كل أديب عربي أن عرف المجددون في مصر كيف يجددون وأي دين في التجدد يتبعون

* * *

ان لم تكن القاهرة حاضرة الامم العربية السياسية و (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) فان القاهرة حاضرة الامم العربية الفكرية ، ملك الشعر فيها

« شوقي » والاقاليم العربية في المشرق والمغرب قائلة من اعمالها ، وادباؤها عماله ، واهلها رعية إحسانه ، وان لهذا الملاك علينا السمع ، وان لنا عليه الاجادة في القول ، وقد (والله) أجاد ، وقد سمعنا واطعنا ، وجئت احتفى به (يوم تكريمه) في المحتفين وأعترف بقدرته المتعالية في القريض مع المعترفين

***

جاء محمد[1] وجاء خليفته[2] وجاء محمود[3] وخرج نابغة الشعر العربي « احمد شوقي » وكان المقتطف[4] وجاءت هذه الدولة الادبية العربية المصرية ومن رجالها الكاتب الاكبر ، والشاعر الاكبر ، والمفكر الاكبر ، والاديب الاكبر ، والخطيب الاكبر والنقاد الاكبر ، والباحث الاكبر ، والفقيه الاكبر ، والمتفنن الاكبر ، والعالم الاكبر ، وكل كبير في علمه ، وفنه فصات في أرجاء الكون هذا الصوت



الا إن محمدا [5]
وذكر محمد
وقرآن محمد
ولغة محمد
وعربية محمد
وأدب محمد
كل ذلك لن يزول ، كل ذلك لن يبيد وفي الدنيا — مصر

(اسعاف النشاشيبي)

---

(١) يعني الاستاذ الامام (٢) عندما قال الخطيب هذا أشار بيده الى صاحب المنار وكان في الصف الأول جهة موقفه اليمنى (٣) يعني محمود سامي البارودي (٤) أي ووجد المقتطف. كل هؤلاء مصريون بيئة واستيطانا قديماً أو حديثاً وليس فيهم أحد قبطي النسب قطعاً فالنهضة المصرية الحاضرة ليست قبطية ولا فرعونية بل عربية وللقبط أنفسهم حظ عربي منها لا ينكر (٥) لعل المراد من كلمة (محمداً) الأولى هذه الاسم لأن خبرها مع ما عطفت عليه قوله بعدها ـ « كل ذلك لن يزول » وهذا يمنع ارادة المسمى وقوله بعدها وذكر محمد يراد به ذكر مناقبه وثنا الله وسنته

علاوة باب الفتاوى

البيت الحرام وسدنته بنو شيبة وحقوقهم والهدايا لهم وإليهم

(س ٧ــ١٠) جاءتنا الاسئلة الآتية من صاحب الفضيلة الشيخ عبدالقادر الشيبي رئيس سدنة البيت الحرام بمكة المكرمة فرأينا وقد تم باب الفتوى من هذا الجزء أن ننشرها هنا مع الاجوبة عنها هنا ليطلع عليها حجاج هذا العام

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

صاحب السماحة مولانا العالم العلامة السيد محمد رشيد رضا دام فضله آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(١) إن ما نتناوله من الصلة والاكرام من زوار بيت الله الحرام بطلب وبغير طلب بدون جبر هل يجوز لنا نحن سدنة بيت الله أخذه أم لا أفتونا مأجورين ولكم الثواب من رب العباد

(ج) يحل ما يعطى عن طيب نفس بغير طلب اجماعا، وأما الطلب وسؤال ما ليس بحق للسائل فهو محرم لغير المضطر، وتفصيل القول في ذلك فيما نجيب به عن السؤال الرابع وهو فتاوى بعض مفتي مكة المكرمة في المسألة

(٢) هل من يتناولنا بالتشنيع والتنقيد في وظيفتنا لتقديم ناس وتأخير ناس آخرين في دخول البيت المشرف كما تقتضيه الحالة وفيما يصلنا من الزوار ــ هل على ولاة الامر منع المتعرضين والمنتقدين لما رواه يونس عن الزهري عن بلال وعثمان ابن طلحة عن النبي ﷺ قال « إن لله بيتا فاحترموه واحترموا سدنته » أفتونا مأجورين ولكم الثواب

(ج) التشنيع والانتقاد على سبيل الاهانة من الغيبة المحرمة بالاجماع فلا حاجة إلى الاستدلال عليها بمثل هذا الحديث الذي ليس من الاحاديث التي تقوم بها الحجة في الرواية وإن كان معناه صحيحاً بل لم أره في شيء من كتب السنة وصيغة الاحترام لم ترد فيها ولا في القرآن وقد استعملها الفقهاء وأراها مولدة ويجب على ولاة الامور منع من يعتدي عليهم ويؤذيهم عند الامكان

(٣) ماقولكم دام فضلكم فيمن يصل إلى بيوت السدنة لبيت الله الحرام ويطلب منهم ورقة تتضمن الفسح (الاذن) لدخول البيت المعظم وتبين الوقت الذي يفتح فيه وعند دخوله تؤخذ منه الورقة التي أعطيت له هل يجوز ذلك أم لا أفتونا لازلتم مأجورين

(ج) إن هذا العمل يقصد به النظام وعدم الازدحام المخل به فيما يظهر فهو بهذا القصد حسن لا بأس به في كل حال وقد يكون ضرورياً في حال الازدحام

(٤) مولانا أقدم إلى مقامكم العلي هذه صورة فتاوي من أسلافكم مفاتي مكة المكرمة وعلمائها الاعلام وهي من قديم الاعوام ونحن متمسكون بما احتوت عليه من الاحكام والنصوص الشرعية في سدانتنا وفي أعمالنا واجراء وظيفتنا نسترحم اطلاعكم عليها والتصديق على مااحتوت عليه من الحق والصواب الذي نرجوكم أن ترشدونا اليه ليكون عملنا عليه . ولكم الثواب



(وهذا نصه)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ﴾

صورة سؤال قدم لمفاتي مكة المكرمة

ماقول العلماء الاعلام في ولاية الكعبة المعظمة وخدمتها وما يوجد فيها ، وما يهدى لها وما تكسى به خارجها وداخلها ، وفتحها واغلاقها ، وما يأخذونه من النذور وزوارها والهدايا ونحو ذلك هل يجوز لبني شيبة أخذه ولا يشاركهم أحد في خدمتها أم لا أفتونا مأجورين

فأجاب حضرة العلامة السيد عبدالله المرغني مفتي مكة المكرمة بقوله

الحمد لله رب العالمين ، رب زدني علماً ، اللهم يامن لاهادي لنا سواك ، أنطقنا بما فيه رضاك ، فليعلم السائل أرشدنا الله وإياه للصواب ، ووفقنا لما جاءت به السنة ونطق به الكتاب ، أنه يختص بما ذكر بنو شيبة الموجودون الآن وإلى يوم القيامة لما أرشد اليه الكتاب من الخطاب وأورده من السنة أجلاء الاصحاب والفقهاء الاعلام ، ومفاتي بلد الله الحرام ، فلا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر

المنازعة فيه ، ولا معارضة من قام منهم بما عليه بما يؤذيه ، فمن فعل شيئاً من ذلك استحق الطرد والابعاد ، والخزي والنكال من رب العباد ، لدخوله في سلك من ظلم ، بصريح قول المصطفى ﷺ ، ويجب على ولاة الامر تأييدهم وردع من يتصدى لذلك اقتداء به ﷺ لينالوا بركة اتباعه ويكونوا ممن أحبهم الله لقوله تعالى (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقد ذكر العلامة أبو السعود في تفسيره كغيره من المفسرين عند قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها) بعد أن ذكر أنه خطاب يعم المكلفين قاطبة مانصه ورد في شأن عثمان بن أبي طلحة بن عبد الدار سادن الكعبة المعظمة وذكر القصة إلى آخرها والله سبحانه وتعالى أعلم

كتبه المفتقر عبدالله بن محمد المرغني

مفتي مكة المكرمة كان الله لها حامداً مستغفراً مصلياً مسلماً

وأفتى في عين هذا السؤال حضرة العلامة الشيخ جمال الحنفي مفتي مكة المكرمة بقوله : سدانة البيت الشريف خدمته وتولي أمره وفتح بابه وغلقه ، فسدنتها هم خدمتها ومن يتولى أمرها الشيبيون العبدريون الثابت نسبهم مابقي الزمان ، وتوالى الملوان ، المتصل نسبهم إلى ابن أبي طلحة وأبو طلحة اسمه عبدالله ابن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي القرشي العبدري الثابتة لهم هذه المباشرة الشريفة جاهلية واسلاما كما دلت عليه الاحاديث الصحيحة ، وقد صح أن النبي ﷺ حين أخذ المفتاح من عثمان يوم فتح مكة حتى ظن عثمان أن النبي ﷺ لايدفعه اليه . وقال العباس بن عبدالمطلب : بأبي أنت وأمي يارسول الله أعطنا المفتاح مع السقاية فأنزل الله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها) قال عمر رضي الله عنه : فما سمعتها من رسول الله ﷺ قبل تلك الساعة فتلاها ثم دعا عثمان بن أبي طلحة ودفع اليه المفتاح وقال « غيبوه » ثم قال « خذوها خالدة تالدة يابني أبي طلحة بأمانة الله واعملوا فيها بالمعروف ، فلا ينزعها منكم إلا ظالم » وروى الفاكهي عن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ لما ناول المفتاح إلى عثمان قال « غيبوه » قال الزهري فلذلك يغيب المفتاح ، وانما استوردت هذه الاحاديث ليستنبط منها أحكام الشيبيين وما به جرت عادتهم القديمة منها هذه

الولاية لهم من الله ورسوله جاهلية واسلاما فيالها من مزية ، لا تضاهيها قضية

ومنها ان لهم تغييب المفتاح وعلى ولاة الامر الحلم عليهم والصفح عن زلاتهم اقتداء به عليه الصلاة والسلام ، وأخذا من قوله ﷺ « كلوا بالمعروف » ان ما يهدى اليهم من الصلات والاحسان على وجه التبرع يحل لهم أخذه وهو من الاكل بالمعروف كما وضحه في البحر العميق [1] وكذا مارث من كل ما أبدل وعمر فيها كما جرت به العادة القديمة لهم بالاخذ . ومما يؤيد ذلك ويدل عليه ما ذكره الفاكهي أنه لما حج الناصر محمد بن قلاون في سنة سبعمائة وثلاث وثلاثين أمر بقلع باب البيت المعظم فاخذه الحجبة . ثم قال الفاكهي يؤخذ من هذا ان ما أزيل من البيت الشريف من المؤن وعمل بدله يكون لبني شيبة لا يشاركهم فيه غيرهم قد شاهدناهم على مثل هذا ، وانهم يصرحون بأن هذا حقنا بالقواعد القديمة.

وقد أجاب خاتمة المفتين ببلد الله الامين حضرة السيد عبدالله المرغني في عين هذا السؤال وقد رفعوا اليه في ضمن كلام طويل بما لفظه : فلا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر المنازعة فيه ولا معارضة من قام منهم بما عليه بما يؤذيه ، فمن فعل شيئا من ذلك استحق الطرد والابعاد والخزي والنكال من رب العباد ، لدخوله في سلك من ظلم والله أعلم ،

أمر برقمه راجي لطف ربه الخفي جمال بن عبد الله شيخ عمر الحنفي

مفتي مكة المكرمة كان الله لها حامداً مصليا مسلما

وافتى في عين هذه المسألة حضرة الشيخ عبد الله سراج الحنفي مفتي مكة المكرمة بقوله: الحمد لله على نعمة الايجاد والامداد ، والصلاة والسلام على من حث على حفظ امانة العباد . بنو شيبة الصحابي هم سدنة الكعبة المعظمة الى يومنا والى يوم القيامة لما صرحت به السنة وليس لأحد مشاركتهم في فتحها واغلاقها وخدمتها لقوله تعالى (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها) وذكر أكثر المفسرين والامام احمد في تفسيره الكبير عند قوله تعالى (ان

(١) المنار : (البحر العميق . في مناسك المعتمر والحاج إلى البيت العتيق) لأبي البقاء المكي العمري الحنفي من فقهاء القرن التاسع

الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها) أنها نزلت في عثمان بن أبي طلحة الحجبي سادن الكعبة المعظمة وروى جبير بن مطعم قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ «مادام هذا البيت أولبنة من لبناته قائمة فان المفتاح والسدانة في أولاد عثمان ابن أبي طلحة الى يوم القيامة» وروى بشر بن السري في المناسك عن نافع الحجبي وعن أبيه عبد الرحمن أن اباه حدثه ان الامام ابا حنيفة لما حج ودخل البيت الشريف وصلى فيه واعطا له[1] الف دينار وقال بنو شيبة هم سدنة البيت الى يوم القيامة لايشاركهم أحد في خدمتها . وأعظم الامام مالك أن لايشرك[2] مع الحجبة أحد في الخزانة لانها ولاية من النبي ﷺ اذ دفع المفتاح لعثمان. قال القاضي عياض الخزانة أمانة البيت وما يقدر ماياخذونه من الزوار فلهم أخذه لانه من الاكل بالمعروف كما اوضحه في البحر العميق . واما مارث من كسوتها وجدد فيها فيوهم وقول عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ ما بال بابه مرتفعا قال «فعل ذلك قومك ليمنعوا من شاؤا» وقولها يا رسول الله كل زوجاتك دخل الكعبة غيري فقال «إذهبي لقرابتك شيبة يفتح لك [illegible] فقال له النبي ﷺ» وقال يارسول الله إنها لم تفتح ليلا في جاهلية ولا في اسلام فان امرتني فتحتها فاخذها وأمرها أن تصلي في الحجر رواه البخاري في صحيحه ، وأما تغيب مفتاح الكعبة فلهم تغيبه كما رواه الفاكهي عن جبير بن مطعم ان رسول الله ﷺ لما ناول المفتاح الى عثمان قال «غيبوه» قال الزهري فلذلك يغيب المفتاح . ولا يجوز عزل صاحب المفتاح ولو كان غير مرضي الحال كما صرح به مفتي مكة المشرفة لانها وظيفة من الله ورسوله فيالها من مزية لاتقاس بوظيفة او قضية والله أعلم

قال بفمه وأمر برقمه خادم الشريعة والمناهج عبدالله سراج الحنفي

وافتى بما يؤيد ذلك ابنه العلامة الشيخ عبدالرحمن سراج مفتي مكة المكرمة بقوله قد اطلعت على ما أجاب به والدي عبدالله سراج الحنفي وما أجاب به شيخي الشيخ جمال بن عبدالله مفتي الاحناف بمكة والعلامة السيد عبدالله المرغني فوجدته هو الحق والصواب ولا يعول على سواه وجوابي كما أجابوا والله سبحانه وتعالى أعلم

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب « أعطاهم » (٢) كذا في الأصل المرسل الينا

كتبه خادم الشريعة والمنهاج عبدالرحمن بن عبدالله سراج الحنفي مفتي مكة المكرمة كان الله لها حامدا مصليا مسلما

﴿ علاوة لهذه الفتوى من مرسلها فيما يظهر ﴾

أخرج الترمذي عن أبي أيوب الانصاري قال قال رسول الله ﷺ الانصار ومزينة وجهينة وغفار وأشجع ومن كان من بني عبد الدار موالي ليس لهم مولى دون الله والله ورسوله مولاهم » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح وما أشار اليه العلامة الشيخ عبدالله سراج في فتواه السابقة الى قول المحقق مفتي مكة المكرمة في القرن العاشر العلامة ابن ظهيرة في فتواه ما نصه بلفظه اذا اختلف حجبة البيت عما عرفت بالعادة هل يقضى لهم بتقديم أكبرهم وربما كان غيره [illegible] الحال ، يقضى الا كبر وان كان غير مرضي الحال والاجهل منهم [illegible] بمسائل كثيرة لا تقاس بوظيفتها لقوله ﷺ [illegible] » صحيح وقوله ﷺ « كل مأثرة كانت في [illegible] الا سدانة البيت » [illegible] عن الزهري عن سالم عن أبيه قال أخبرني بلال وعثمان بن طلحة أن النبي ﷺ قال « ان لله بيتا فاحترموه واحترموا السدنة » وأيضا أخرج الحافظ ابن حجر في شرح البخاري عند دخول النبي ﷺ من اعلا مكة : روى ابن عائذ من طريق ابن جريج أن عليا قال للنبي ﷺ اجمع لنا الحجابة والسقاية فنزلت (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها) فدعا عثمان فقال « خذوها يابني شيبة خالدة تالدة لا ينزعها منكم الا ظالم » وفي طريق علي بن أبي طلحة أن النبي ﷺ قال « يابني شيبة كلوا مما يصل اليكم من هذا البيت بالمعروف » قال الامام فخر الرازي في تفسيره (ج ٣ ص ٢٣٨) قوله (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها) الى أن قال الامام بعد أن ذكر القصة يوم الفتح وطلب ﷺ المفتاح وأخذه من عثمان بن أبي طلحة بن عبد الدار وطلب العباس له ورده الى عثمان وقال « ياعثمان خذ المفتاح على أن للعباس نصيبا معك » فأنزل الله هذه الآية فقال النبي ﷺ لعثمان (خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم الا ظالم) اه

فكيف ضبطوا أنسابهم ليعلم أكبرهم سنا فيكون صاحب المفتاح ورئيس الحجاب لبيت الله تعالى وأين يقيمون؟ وإن كانوا قليلين فما سبب ذلك؟ اننا نرجع إلى كبيرهم في طلب البيان ولعله يجيبنا على ذلك كتابة بالاختصار

﴿ وأما هدايا الكعبة والنذور لها ﴾ فهي تختلف باختلاف ما تهدى وتنذر له وبالعرف وأطلق بعضهم القول بأنها خاصة بها تحفظ لينفق منها على عمارتها عند الحاجة وصرحوا بأنه لا يجوز انفاق شيء منها على الفقراء، ولا في المصالح. وروى البخاري واللفظ له وأبو داود وابن ماجه عن أبي وائل قال: جلست مع شيبة على الكرسي في الكعبة فقال: لقد جلس هذا المجلس عمر (رض) فقال: لقد هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمته. قلت ان صاحبيك لم يفعلا. قال: هما المرآن اقتدى بهما. وفي بعض الروايات عن شيبة أنه قال لعمر: ما أنت بفاعل. قال ولم ذاك؟ قلت لأن رسول الله ﷺ قد رأى مكانه وأبو بكر وهما احوج إلى المال منك فلم يحركاه

والمراد بهذا الكنز الذي كان فيها مما يهدى إليها وكان في صندوق في البيت. وروى مسلم من حديث عائشة (رض) عنها في بناء الكعبة «لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله» فظاهر هذا التعليل أن الامتناع من انفاق الكنز كالامتناع من نقض بناء الكعبة وإقامتها على أساس ابراهيم ﷺ وإلصاق بابها بالارض وفتح باب آخر في مقابله فقد علل ذلك ﷺ في كلامه مع عائشة بحداثة عهد قومها بالكفر والجاهلية وخوف انكار قلوبهم ذلك، وفي رواية خشية انكار قلوبهم والروايات عنها في هذا ثابتة في الصحيحين وغيرهما، وهذا التعليل قد زال بتمكن الاسلام وهو يدل على عدم امتناع انفاق كنزها في سبيل الله لذاته فما بال الفقهاء حرموا ذلك؟ وقد يقال إن ذلك الكنز كان من أموال المشركين في الجاهلية وما ذكروه من الهدايا والنذور في عهد الاسلام يخالفه في حكمه فيجب صرفه فيما وقف أو نذر له وهو مصالح البيت وحدها. وقد روى الأزرقي في تاريخ مكة أن النبي ﷺ وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من ذهب مما كان يهدى للبيت فقال له علي (رض) يارسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك فلم يحركه

وفي هذه المسألة فروع ذكروا فيها أن لحجبة البيت (وهم آل شيبة) أن يتصرفوا ببعض النذور التي جرى بها العرف ننقل الفروع الثلاثة الآتية منها عن كتاب (الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف) للشيخ جمال الدين محمد جار الله القرشي المخزومي الحنفي من علماء مكة في القرن العاشر قال : فروع

(الاول) تختص الكعبة الشريفة بما يهدى اليها وما ينذر لها من الاموال وامتناع صرف شيء منها إلى الفقراء والمصالح إلا أن يعرض لها نفسها عمارة فيصرف فيه وإلا فلا يغير شيء عن وجهه نبه عليه الزركشي من الشافعية

(الثاني) اذا نذر شمعاً يشعله فيها أو زيتاً ونحوه وضعه في مصابيحها وإن كان لا يستعمل فيها بيع وصرف الثمن في مصالحها صرح به الماوردي

(الثالث) نقل الجد في منسكه مسألة تعم بها البلوى فقال شخص نذر أن يوقد شمعاً على باب الكعبة فأرسل به مع غيره ليوقده فجاء المرسل به وأوقده على الباب قليلا فجاء الحجبة فأخذوه ومنعوا [illegible] وقوده وقالوا هذه عادتنا مع كل أحد وربما سرقوه وأبو [illegible] والمرسل معه أو ذمة الناذر دون المرسل [illegible]

(الجواب) الناذر خلص من عهدة المنذور لوقوعه محله وكون الحجبة يأخذونه أمر آخر لا يتعلق ببقاء النذر في ذمة الناذر ولا المرسل معه ، وإن كان على الحجبة ابقاؤه موقوداً إلى نفاده ولا خفاء أن الناذر نفسه لو حضر بالشمع فكان ما تقدم كان الحكم كذلك ، ومحل صحة هذا النذر من أصله أن ينتفع بهذا الموقود ولو على نحو مصل هناك أو غيره وإلا فان كان القصد بالنذر وهو الغالب تعظيم البقعة ففيه وقفة ومقتضى كلام النووي عدم الصحة وصرح به الاذرعي وتبعه الزركشي انتهى

(أقول) مقتضى مذهبنا أن المرسل بالشمع لا يخلص عن العهدة بمجرد إيصال الشمع إلى المحل ، بل ولا بوقوده قليلا ما لم يوقد ثلثاه فأكثر ، وأما الحجبة فلهم أخذه بغير اذن المرسل إذ جرى العرف بذلك بعد أن وقد معظمه نص عليه في القنية من كتب المذهب انتهى بحروفه

(تنبيه) ان الشمع الذي يوقد الآن على باب الكعبة لا ينتفع به أحد لان الحرم

كله بضياء قناديل الكهرباء وقناديل أخرى غازية ، ويوضعه على عتبة الباب يستقبله المصلون واستقبال النار في الصلاة محظور لما فيه من شبه المجوس كما صرحوا به . ولعلهم تساهلوا فيه لان المراد به تعظيم الكعبة مع كون شبه المجوس نسي فلا يخطر بالبال

(وأما كسوة الكعبة المعظمة) فالاصل فيها أن أمرها إلى الامام الاعظم ولذلك كان عمر (رض) يقسمها على الحجاج كما يأتي ، ثم ترك الائمة والامراء أمرها إلى بني شيبة حجبة الكعبة . قال الحافظ ابن حجر في الفتح في شرح حديث عمر في كنز الكعبة الذي تقدم آنفا نقلا عن ابن المنير : والذي يظهر جواز قسمة الكسوة العتيقة إذ في بقائها تعريض لاتلافها ولا جمال في كسوة عتيقة مطوية (قال) ويؤخذ من رأي عمر أن صرف المال في المصالح آكد من صرفه في كسوة الكعبة لكن الكسوة في هذه الازمنة أهم (قال) واستدلال ابن بطال بالترك (أي ترك عمر لكنز الكعبة اتباعا) على إيجاب بقاء الاحباس (أي الاوقاف) لايتم إلا إن كان القصد بمال الكعبة اقامتها وحفظ أصولها اذا احتيج إلى ذلك ويحتمل أن يكون القصد منه منفعة أهل الكعبة وسدنتها ، أو إرصاده لمصالح الحرم أو لأعم من ذلك ، وعلى كل تقدير فهو تحبيس (أي وقف) لا نظير له فلا يقاس عليه انتهى

(ثم قال الحافظ) عقب نقل هذا : ولم أر في شيء من طريق حديث شيبة (أي مع عمر) هذا ما يتعلق بالكسوة إلا أن الفاكهي روى في كتاب مكة من طريق علقمة ابن أبي علقمة عن أمه عن عائشة (رض) قالت : دخل علي شيبة الحجبي فقال ياأم المؤمنين إن ثياب الكعبة تجتمع عندنا فننزعها ونحفر بئاراً فنعمقها وندفنها لكي لاتلبسها الحائض والجنب . قالت بئسما صنعت ، ولكن بعها فاجعل ثمنها في سبيل الله وفي المساكين فانها اذا نزعت عنها لم يضر من لبسها من حائض أو جنب . فكان شيبة يبعث بها إلى اليمن فتباع فيضعها حيث أمرته . وأخرجه البيهقي من هذا الوجه لكن في اسناده راو ضعيف واسناد الفاكهي سالم منه . وأخرج الفاكهي أيضاً من طريق ابن خثيم حدثني رجل من بني شيبة قال : رأيت شيبة ابن عثمان يقسم ما سقط من كسوة الكعبة على المساكين . وأخرج من طريق ابن أبي نجيح عن أبيه أن عمر كان ينزع كسوة الكعبة كل سنة فيقسمها على الحاج اه

وقد نقل القسطلاني في شرحه لهذا الحديث أقوالا للشافعية في الكسوة ختمها بنقله عن (المهمات) للاسنوي التفصيل الآتي :

واعلم أن للمسألة أحوالا (أحدها) أن توقف على الكعبة وحكمها ما مر ، وخطأه غيره بأن الذي مر محله اذا كساها الامام من بيت المال ، أما اذا وقفت فلا يتعقل عالم جواز صرفها في مصالح غير الكعبة (ثانيها) أن يملكها مالكها للكعبة فلقيّمها أن يفعل فيها مايراه من تعليقها عليها أو بيعها وصرف ثمنها إلى مصالحها (ثالثها) أن يوقف شيء . على أن يؤخذ ريعه وتكسى به الكعبة كما في عصرنا فان الامام قد وقف على ذلك بلاداً

(قال) وقد تلخص لي في هذه المسألة أنه إن شرط الواقف شيئاً من بيع واعطاء لأحد أو غير ذلك فلا كلام ، وإن لم يشترط شيئاً إن لم يقف الناظر تلك فله بيعها وصرف ثمنها في كسوة أخرى وإن وقفها فيأتي فيه ما مر من الخلاف في البيع . نعم بقي قسم آخر وهو [illegible] في هذا [illegible] وهو أن الواقف لم يشرط شيئاً من ذلك ، ويشرط [illegible] كانوا يأخذونها كل سنة لما كانت تكسى من بيت المال [illegible] فهل يجوز لهم أخذها الآن أو تباع ويصرف ثمنها إلى كسوة أخرى ؟ فيه نظر والمتجه الاول اه

أقول ذكرت هذا التفصيل لان المطلعين على كتب الفقه يرون فيها أقوالا مختلفة في المسألة سببها اختلاف التاريخ والاحوال والحالة الاخيرة التي ذكرها القسطلاني هنا هي الثابتة إلى الآن ، وهي أن الملك الصالح اسماعيل بن الناصر ابن قلاوون صاحب مصر وقف قرية بيسوس (ويقال الآن بسوس) من نواحي القاهرة على كسوة الكعبة سنة ٧٤٣ ومن ذلك العهد تصنع الكسوة في مصر في كل عام ، وهل العبارة في القسطلاني له وهو قد توفي في سنة ٩٢٣ أم للاسنوي وهو قد توفي سنة ٧٧٢ ؟ الاظهر الاول ، والحالة واحدة

وفي الجامع اللطيف : نقل الفاسي رحمه الله أن أمراء مكة كانوا يأخذون من السدنة ستارة باب الكعبة في كل سنة مع جانب كبير من كسوتها أو ستة آلاف درهم كاملية عوضا عن ذلك إلى أن رفع ذلك عنهم السيد عنان بن مقاس لما ولي

أمر مكة سنة ٧٨٨ وتبعه أمراء مكة في الغالب ، ثم ان السيد حسن بن عجلان بعد سنين من ولايته صار يأخذ منهم الستارة وكسوة المقام ويهديها لمن يريد من الملوك وغيرهم انتهى (أي كلام الفاسي) وقد استمر الامر كذلك من أمراء مكة إلى يومنا هذا (أي سنة ٨٥٠) اهـ

وأقول ان أمراء مكة صاروا يأخذون الكسوة العتيقة كل سنة ويتصرفون فيها إلى عهد الملك حسين بن علي ثم ردها الملك عبد العزيز بن السعود إلى الشيبي

ثم أورد صاحب الجامع اللطيف فروعا في المسألة أولها في مسألتنا وهو :

« يجوز بيع ثياب الكعبة عندنا اذا استغنت عنه ، وقال به جماعة من فقهاء الشافعية وغيرهم ويجوز الشراء من بني شيبة لأن الامر مفوض اليهم من قبل الامام نص عليه الطرسوسي من أصحابنا في شرح منظومته ووافقه السبكي من الشافعية ثم قال وعليه عمل الناس ، والمنقول عن ابن الصلاح أن الامر فيها إلى الامام يصرفها في بعض مصارف بيت المال بيعا وعطاء ، واستدل بما تقدم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفي فوائد العلامة الشيخ خليل بن كيكلدي أنه لا يتردد في جواز ذلك الان لأجل وقف الامام ضيعة معينة على أن يصرف ريعها في كسوة الكعبة والوقف بعد استقرار هذه العادة والعلم بها فينزل لفظ الواقف عليها ، واستحسن النووي الجواز أيضاً . قال الجد رحمه الله : هذا في الستور الظاهرة ، وأما الستور الداخلة فلا تزال ، بل تبقى على ماهي عليه لأن الكلام انما هو في الستور التي جرت العادة أن تغير في كل عام ، فلو قدر جريان العادة بمثل ذلك في الستور الباطنة سلك بها مسلك الظاهرة انتهى

(وأما مسألة ارتفاع باب الكعبة) فقد كان من استبداد قريش ورفعهم أنفسهم على الناس ، وانما ذكره النبي ﷺ لعائشة منكراً الاجعيز أولم يذكر في السؤال ولا في الفتاوى المسئول عنها نص الحديث كله في ذلك وهو في الصحيحين ولفظه في البخاري عنها سألت النبي ﷺ عن الجدر (هو بالفتح الجدار بالكسر والمراد به الحجر ، وقد ورد الحديث في غيرهما بهذين اللفظين) أمن البيت هو ؟ قال « نعم » قلت

فما لهم لم يدخلوه في البيت ؟ قال « إن قومك قصرت بهم النفقة »[١] قلت فما شأن بابه مرتفعاً ؟ قال « فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤا ويمنعوا من شاؤا ، ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدر في البيت ، وأن ألصق بابه بالارض » زاد مسلم « لنظرت أن أدخل » أي أن أفعل ذلك ، كما زاد عند قوله ويمنعوا من شاؤا « فكان الرجل اذا أراد أن يدخلها يدعونه يرتقي حتى اذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط »

وفي حديث آخر للبخاري أنه ﷺ قال لها « ياعائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالارض وجعلت له بابين باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به أساس ابراهيم » (قال) فذلك الذي حمل ابن الزبير على هدمه الخ

وأقول ان عبدالله بن الزبير فعل كل ما كان النبي ﷺ يحب أن يفعله فأعاده إلى أساس ابراهيم وبلغ بذلك الأساس ... ورآه الناس وجعل له بابين، ولكن الحجاج هدم ما بناه وأعاده كما كان ويقال ان عبد الملك بن مروان ندم على اذنه للحجاج في هدمها ولعن الحجاج لأنه اتهم ابن الزبير بالكذب على عائشة فأخبره الحارث ابن عبدالله بن أبي ربيعة انه سمع ذلك منها فندم ، وأراد بعض خلفاء بني عباس أن يعيدها إلى بناء ابن الزبير فناشده الامام مالك أن لا يفعل كيلا تصير ملعبة للملوك فلهذا بقيت على وضعها إلى الآن

(وأما تغييب المفتاح) فلا أذكر أن أحداً بحث في سببه أو حكمه فأراجع قوله وكان الذي سبق الى فهمي كلما قرأت ذلك ان سببه مطالبة كل من العباس وعلي (رض) له بجعله لبني هاشم فحسب ﷺ أنه ربما يراه أحد من بني هاشم مع طلحة فينتزعه منه لعدم علمه بتخصيصه به هو وآله من بعده فتكون فتنة وقد زال هذا السبب منذ العصر الاول ولم يبق لتغييب المفتاح معنى الا ابقاء الباب مقفلا في معظم الاوقات وفتحه في أقلها وهو خلاف ما كان يريده ﷺ من فتح بابين لها

---

(١) قال الحافظ في الفتح أي الطيبة التي أخرجوها لذلك وذكرأنهم لم يدخلوا في النفقة على بنائها شيئا من كسب بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس

مساويين للارض ليدخل الناس من أحدهما ويخرجون من الآخر ، والظاهر ان أئمة الحكم وأئمة العلم رأوا ان المصلحة العامة التي منعت النبي ﷺ ثم الخلفاء الراشدين من تنفيذ ذلك وبقاء الحال على ما كانت عليه من علو الباب ووحدته لاتزال تقتضي ذلك في كل زمان وان اختلفت العلة ، فلو جعل الباب الآن مفتوحاً في كل وقت لامتهن البيت وقل احترامه وحدثت فيه بدع ومنازعات عند الازدحام ففتحه في بعض الاوقات وتخصيص بعض الناس بدخوله دون بعض يقي من ذلك كله مع مراعاة الشيئين الحكمة ومداراة الناس في ذلك

وجملة القول ان السدانة ثابتة لبني شيبة بالتواتر والله أعلم

﴿ دعوة مفسدي الرافضة يحيى الى قتال ابن السعود ﴾

(وأهل الحجاز الى الثورة)

تنشر هذه الابيات الآتية [illegible] شاعر [illegible] موت بإمضاء ابن زمزم ليعلم [illegible] الناظم انه لاقيمة له ولا [illegible] عند [illegible] ولا عند غيره بالأولى ، فلم يبق لهم ما [illegible] الا [illegible] الا [illegible] انهم في ايران فيقيموا لهم ملكا كالذي أقاموه لأئمة آل البيت من قبلهم !! قال الناظم الاحمق :

يا نفس ذوبي ويا قلب اتقد ألما … وامطري الدم يا عيني منسجما
وياقضاء إلهي لاتذر أبداً … في القوم من ناطق بعد الذي دهما
دهى الجزيرة خطب لاحدود له … أعيا النهى وأثار الشر والنقما
خطب يعيد بلاد العرب أندلسا … أخرى ويربي على طول المدى حما
فلست مستصرخا بالمسلمين وهم … يرون ما فاض في بيت الهدى وطمى
وما أصيب به دين النبي ضحى … والامر لله يجريه بما حكما
لكنني (١) سوف أدعو من اذا كشفت … عن ساقها الحرب كان الصارم الخذما
ومن تحدر من بيت محامده … ان أجدب الناس كانوا فيهمو ديما
ومن أتى جده الهادي وعترته … من بعده ما بقوا بين الورى نعما

(١) مفهوم هذا الاستدراك أن الامام الذي يدعوه وجماعته ليسوا من المسلمين !!

نفسي الفداء لأهل البيت لا بقيت ... نفسي اذا لم تسر في حبهم قدما
ياماجني وأمير المؤمنين ومن ... تلقي عليه من الآمال ماعظما
ياراعي اليمن الخضراء يملؤها ... تقى وعدلا وإيمانا بها اعتصما
ياتاج يعرب والاسلام قاطبة ... يامن يجير الحق والدين والذمما
وياشديد العرى في كل نائبة ... أدعوك مولاي للأمر الذي قصما
« يا ابن النبي وأنت اليوم وارثه » ... حتام يهدم في الاسلام من هدما
حتام يعبث في قلب الجزيرة ? .. لا ... خوف من الله لا صدق ولا شمما
سكت المعتدي يمشي مندفعا ... كما يكون هو البادي الذي ظلما

ثم قال يحث أهل الحجاز على الثورة تمهيداً للزحف الموهوم

فلن يحل لكم در الحجاز — وقد ... قمتم بالردى لا لازم لا همما
بالله موتوا فقد ماتت شمائلكم ... ولا حياة لجسم يفقد الشيما
أولا فأحيوا زماناً كنتم شيبا ... فيه وثوروا سراعا واحملوا العلما
كأنكم بأبي الاشبال ... ... يحمي الأمام بموج البحر ملتطما
كأنكم بحسين ... في ... أكتاف مكة ... البؤس منتقما
من خلفه تيقم الفتيان احمد قد ... خاض العجاج فقر الخصم وانهزما
وخلص البيت مما قد أحاط به ... ورد للعرب والاسلام ماعدما

﴿ حجاج الشيعة الايرانيين ومصر ﴾

تحدثت الاخبار من سورية بأن كثيراً من حجاج الشيعة الايرانيين قد وفدوا عليها في طريقهم إلى الحجاز عصيانا لحكومتهم في طاعة الله تعالى. وذلك ان هؤلاء الحجاج قد رأوا ان الاراجيف التي نشرت في العام الماضي لمنع الشيعة من الحج كانت كاذبة خاطئة ، فالوهابيون لم يسألوا احداً من الحجاج عن مذهبه ولا عن حجه ولا كلفوا احداً اتباع مذهبهم والبلاد كلها آمنة مطمئنة فلا عذر لمسلم في ترك الفريضة مع القدرة اتباعا لهوى حكومته وقد روى الشيخان وأبو داود والنسائي من حديث علي كرم الله وجهه مرفوعا الى النبي (ص) «لاطاعة لأحد في معصية الله انما الطاعة في المعروف» ولكن بعض الملاحدة في مصر يدسون الدسائس لاقناع حكومة مصر باتباع حكومة ايران في منع الحج وتحييد محلها ، والمسلمون لا يثقون بأقوالهم في امر الدين لانهم خصومه

لابد من

قتل صاحب المنار

بلغنا أن الكاتب المغرور محمد حسين هيكل بك رئيس تحرير جريدة السياسة المرورة لسان حال الحزب الحر الدستوري وحزب الملاحدة قد قرر لمرؤسيه محرري جريدة السياسة لابد من قتل صاحب المنار فوافقوه ، وهم يعنون بهذا القتل ما يكون بأسنة أقلامهم الطعانة . فالمتبادر أنهم يعنون القتل المعنوي أو ما يسمونه الأدبي ، وإن كانوا لا يدخرون وسعاً اذا قدروا على إيذائه بغير ذلك كما فعلت السياسة حين اتهمته من قبل بأنه يعمل مع جمعية سرية دينية سياسية بإغراء الأمير عباس حلمي (الخديوي السابق) ولولا أن كذبت الحكومة هذه التهمة تكذيباً رسمياً عقب إذاعة جريدة السياسة لها لانتزع صاحب المنار من بين أهله وولده [illegible] السجن رهن التحقيق فكان ذلك أطرب لرئيس تحرير السياسة من الصبوح والغبوق ومن بلوغ العيوق

كان ذنب صاحب المنار [illegible] إنكاره على علامتها المحقق الشيخ علي عبد الرازق كتابه الذي [illegible] الإسلام من أساسه ...

وقد تضاعفت [illegible] بالمرصاد لجميع أنواع الدعاية الالحادية التي تبثها جريدة السياسة باسم التجديد والثقافة المصرية التي تزعم أن مصر دعاتها وبناة مدرسة الجامعة المصرية ستنسخ بها ثقافة الاسلام التي مصدرها الأزهر وغيره وتحل محلها بدعوتها في ذلك سائر العرب بزعمها

يظن محررو السياسة أن الذي أطلق لسانه وقلمه من كل قيد من قيود الحق والصدق والأدب يستطيع اذا كان ذا خلابة أن يجعل الحق باطلا والنور ظلاما والشرف خسة والفضيلة رذيلة ، ويظنون أنهم فعلوا بخلابتهم بسعد ووفده ما لم يفعله جيش الاحتلال ، وفعلوا لحزبهم ما لا يسمح لنا ببيانه الحال ... فحاولوا سعداً قد بلغ من ارتفاع المكانة في مصر ما لم يبلغه أحد يعرفه التاريخ فماذا يكون رشيد رضا الغريب السوري الضعيف ؟ يقولون إذا قتلناه أسف قتلة بما كتبناه في مسألة المؤتمر الخلافة ، فاقتلنا الأزهر نفسه فهو الآن متحن جراحه وسنقضي عليه ببضع مقالات أخرى

غرور كبير ما قالوا ولن يقتلوا الا حزبهم وأنفسهم ، وسنقضي بحول الله وقوته على إلحادهم (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ولكم الويل مما تصفون)